الفصل الحادي والثلاثون

سليمان القانونى

١٥٢٠ — ١٥٦٦

١ — الإسلام فى أفريقية : ١٢٠٠ — ١٥٦٦

إنه من العسير علينا ، نحن المحصورين فى العالم المسيحى ، أن ندرك أنه منذ القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ، كان الإسلام متفوقاً على أوربا من النواحى الثقافية والسياسية والعسكرية . وحتى فى أيام اضمحلاله فى القرن السادس عشر ، ساد من دلهى وما وراءها حتى كازابلنكا ، ومن أدرنه إلى عدن ، ومن تونس إلى تمبكتو . ويحدثنا ابن بطوطة الذى زار السودان ١٣٥٣ أنه وجد هناك حضارة مشرقة تحت راية الإسلام ، وكتب بعد ذلك مؤرخ من السود هو عبد الرحمن السعدى (١٦٥٠) ، تاريخاً كشافاً بارعاً ، يصف مكتبات خاصة تضم ١٦٠٠ مجلد فى تمبكتو ، ويصف المساجد الضخمة التى تشهد أطلالها بمجد غابر .

وحققت أسرة المارينى (١١٩٥ — ١٢٧٠) الاستقلال لبلاد المغرب ونهضت بفاس ومراكش إلى مصاف المدن الكبرى ، وكان فى كل منهما مداخل جليلة ومساجد مهيبة ومكتبات عامرة بذخائر العلم والمعرفة ، ومدارس قائمة وسط أعمدة ظليلة ، وأسواق صاخبة يمكن أن يشترى المرء منها أى شىء بنصف الثمن . وكان يقطن فاس فى القرن الثالث عشر نحو ١٢٥٫٠٠٠ نسمة ، وربما كان هذا أكبر من سكان أية مدينة فى أوربا ، باستثناء القسطنطينية وروما وباريس . وفى مسجد القيروان وهو مقر أقدم جامعة فى المغرب درس الدين والعلوم جنباً إلى جنب ، وقد جذبت هذه الجامعة إليها الطلبة المتعطشين من كل بقاع الإسلام فى أفريقية ، والمعلمين

obeikandi.com

والمحامين ورجال الدين ورجال الحكم ، ليدرسوا مناهج شاقة لمدة تتراوح بين ثلاث سنين واثنتى عشرة سنة . وكان الأمير يعقوب الثانى الذى حكم بين ١٢٦٩ — ١٢٨٦ من فاس أو من مراكش ، من أكثر الأمراء استنارة فى قرن تقدمى . وكان حاكماً عادلا ومحسناً خيراً حكيماً ، لطف الدين بالفلسفة ، ونأى بنفسه عن التعصب الأعمى ، وشجع الاتصال الودى بالأوربيين . واستقبلت هاتان المدينتان كثيراً من اللاجئين من أسبانيا ، وأحضر هؤلاء معهم حوافز جديدة للاستزادة من العلوم والفنون والصناعة . وإن ابن بطوطة الذى كان قد رأى معظم العالم الإسلامى المترامى الأطراف ليسمى مراكش « جنة الدنيا » .

ويدهش السائح الحديث فى طريقه من فاس إلى وهران ، عندما يجد فى تلمسان بقايا متواضعة لما كان فى القرن الثالث عشر مدينـــة تضم ١٢٥ر٠٠٠ نسمة . وكان بها ٦٤ مسجدا بقى منها ثلاثة فقط : الجامع الكبير (١١٣٦) ، ومسجد أبى الحسن (١٢٩٨) ومسجد الحـــلاوى (١٣٥٣) وهى من أجمل المساجد فى العالم الإسلامى ، فيها أعمدة الرخام والفسيفساء المعقدة ، والمحاريب الرائعة ، الساحات ذوات العقود والخشب المحفور والمآذن السامقة ، وهى باقية لتكون شاهدا على العظمة الغابرة التى كادت أن تنسى . وهنا احتفظت أسرة عبد الواحد لمدة ثلاثة قرون (١٢٤٨ — ١٣٣٧ ، ١٣٥٩ — ١٥٥٣) بحكم كفل للمسيحيين واليهود الحرية الدينية ، كما رعت الآداب والفنون ، وبعد أن استولى الأتراك على المدينة ، فقدت أهميتها كمركز للتجارة ، واضمحلت وانزوت فى ظلال التاريخ .

وإلى الشرق من المغرب ، ازدهرت الجزائر بفضل مزيج من التجارة والقرصنة . وقام ثغر الجزائر الجميل ، نصف مختبئ فى خليج ند ف دائرى تحف به الصخور ، المؤلف من طبقات بعضها فوق بعض من شقق

وقصور تمتد من البحر المتوسط إلى كسبه ، تقول هيأ هذا الثغر للقرصان ومراكبهم مخبأ آمناً مفضلا لديهم ، وحتى منذ أيام بومبى كان قرصان هذا الشاطئ يغيرون على المراكب العزل . ومنذ ١٤٩٢ أصبحت الجزائر ملجأ للمغاربة المسلمين الفارين من أسبانيا . وقد التحق كثير منهم بسفن القراصنة ، وانقضوا بسورة الانتقام على أية سفن مسيحية يتربصون لها . وتضاعف عدد القرصان واشتدت جرأتهم ، فكونوا أساطيل قوية فى مثل قوة الأساطيل الوطنية وأغاروا على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط ، فردت أسبانيا على ذلك بحملات وقائية استولت على وهران والجزائر وطرابلس (١٥٠٩ — ١٥١٠) .

ودخل الميدان فى ١٥١٦ قرصان جبار نشيط ، أطلق عليه الإيطاليون لقب بربروسه ، بسبب لحيته الحمراء ، واسمه الحقيقى خير الدين خضر ، وكان يونانياً من لسبوس خضر مع أخيه هورش Horash لينخرط فى سلك القرصان . وعلى حين وصل بنفسه إلى مرتبة القيادة فى الأسطول ، قاد هورش جيشاً ضد الجزائر ، وطرد الحامية الأسبانية ونصب نفسه حاكماً على المدينة ، ومات أثناء القتال (١٥١٨) ، فاحتل خير الدين مكان أخيه ، وأدار شئون الحكم بقوة ومهارة ، وقصد خير الدين ، رغبة منه فى تثبيت مركزه ، إلى القسطنطينية حيث عرض على السلطان سليم الأول السيادة على طرابلس وتونس والجزائر فى مقابل قوة تركية كافية للاحتفاظ بسلطانه بوصفه حاكماً من قبل السلطان على هذه الأقاليم ، ووافق سليم ، وأكد سليمان هذه الاتفاقية . وفى ١٥٣٣ أصبح خير الدين بطل الإسلام فى الغرب بأن هيأ لسبعين ألفاً من المغاربة العبور إلى أفريقية من أسبانيا القاسية غير المضيافة ، ولما عين بربروسه أول قائد عام للأسطول التركى برمته ، أغار بأربع وثمانين سفينة تحت إمرته على المدينة تلو المدينة على شواطئ صقلية وإيطاليا ، وأسر آلافاً من المسيحيين بيعوا بيع الرقيق . ورسا بربروسه قرب نابلى ،

وكاد ينجح فى أسر جيوليا جنزوجا كواونا التى اشتهرت بأنها أجمل سيدة فى إيطاليا ، إلا أنها فرت شبه عارية ممتطية جواداً ، وبمعيتها فارس واحد بوصفه حارساً لها ، فلما وصلت إلى المكان المقصـــود أمرت بإعدامه لأسباب أغفلت ذكرها ويمكن استنتاجها .

ولكن بربروسه كان يهدف إلى غنيمة أبقى على الأيام من سيدة جميلة ، فأنزل إلى البر جنوده الانكشارية ، وتقدم نحو تونس (١٥٣٤) . وكانت أسرة بنى النفيس قد حكمت تلك المدينة حكماً صالحاً منذ ١٣٢٦ ، وازدهرت الآداب والفنون تحت رعايتهم ، ولكن مولى حسن الذى كان أميراً آنذاك ، كان قد باعد بينه وبين الأهالى بوحشيته وقساوته ، وما أن اقترب بربروسه حتى لاذ الأمير بالفرار فسقطت تونس دون إراقة الدماء . وضمت إلى ملك آل عثمان ، وأصبح بربروسه سيد البحر المتوسط .

ووقع العالم المسيحى فى محنة ثانية ، لأن الأسطول التركى كان يستطيع فى أية لحظة أن يهيئ للإسلام الدخول إلى جنوب إيطاليا . ومن الغريب حقاً أن فرانسوا الأول (ملك فرنسا) كان متحالفاً إذ ذاك مع تركيا ، كما كان البابا كليمنت السابع حليفاً لفرنسا . ومن حسن الحظ أن كليمنت قضى نحبه (٢٥ سبتمبر ١٥٣٤) فخلفه البابا بول الثالث الذى تعهد لشارل الخامس بالمال اللازم لمهاجمة بربروسه ، وعرض أندريه دوريا تعـــاون أسطول جنوه تعاوناً كاملا فى هذه الحملة . وفى ربيع ١٥٣٥ جمع شارل الخامس فى كاجليارى فى سردينيا ٤٠٠ سفينة وقوة قوامها ثلاثون ألف رجل . وعبر البحر المتوسط ، وحاصر لاجولتا ، وهو حصن يسيطر على خليج تونس ، وسقط الحصن بعد قتال دام شهراً ، وتقدم الجيش الإمبراطورى نحو تونس . وحاول بربروسه وقف تقدمه ، ولكنه هزم ولاذ بالفرار . وحطم الأرقاء المسيحيون فى تونس أغلالهم وفتحوا الأبواب ، ودخل شارل المدينة دون مقاومة ، وأباح لجنـــوده السلب

والنهب لمدة يومين ، حتى لا يتمردوا . فلقى آلاف من المسلمين حتفهم . ودمرت حصيلة قرون من الفنون فى يوم أو يومين ، وحرر الأرقاء المسيحيون وسط مظاهر الابتهاج ، ووقع براثن العبودية من بقى من السكان المسلمين . وأعاد شارل الأمير مولى حسن كحاكم تابع يؤدى له الجزية ، وأبقى حامية فى كل من بونا ولاجولتا ، وعاد هو إلى أوربا .

فر بربروسه إلى القسطنطينية ، وبنى بأموال من سليمان أسطولا جديدا مكوناً من مائتى سفينة . وفى يولية ١٥٣٧ ألقت هذه القوات مراسيها فى تارنتو ، وضرب الحصار على العالم المسيحى ثانية . وتشكلت « العصبة المقدسة » من جديد من البندقية والبابوية والإمبراطورية ، وجمعت مائتى سفينة بعيدا عن كورفو ، وفى ٢٧ سبتمبر اشتبك الأسطولان المتصارعان فى القتال عند مدخل خليج أمبراسيا ، فى نفس المياه التى التقى فيها أنطونيوس وكليوباترة مع أكتافيوس فى معركة أكتيوم . وكانت الغلبة لبربروسه ، وأصبح مرة أخرى سيد البحار ، وسار شرقاً واستولى فى طريقه على ممتلكات البندقية فى بحر إيجه واليونان بعضها إثر بعض ، وأرغم البندقية على عقد صلح منفرد .

وحاول شارل أن يكسب بربروسه الالتحاق بخدمته بما أغدق عليه من هدايا ، وبما عرض عليه من أن يكون ملكاً تابعاً له على شمالى أفريقية ، ولكن خير الدين آثر جانب الإسلام وإغراءه . وفى أكتوبر ١٥٤١ قاد شارل ودوريا حملة ضد الجزائر ، ولكن جيش بربروسه أوقع بها الهزيمة فى البر كما هبت عليها عاصفة مدمرة فى البحر ، ورد بربروسه على العدوان بالمثل ، بالإغارة على كالابريا والنزول فى أوستيا ثغر مدينة رومه ، وارتعدت العاصمة الكبيرة فى عقر دارها فرقاً ، ولكن بول الثالث كان آنذاك على علاقات حسنة مع فرانسوا فعوض بربروسه ، ادعاء بمجاملة حليفه عن كل ما أخذه من أوستيا نقداً ، ورحل عنها فى سلام[1] : وأبحر إلى طولون ،

حيث لقى أسطوله ترحيباً ممن كانوا فى الواقع فرنسيين ، وطلب أن تكف أجراس الكنيسة عن القرع طالما كانت « سفن الله » فى الميناء لأن أصواتها تقض مضجعه ، وكان مطلبه قانوناً . واشترك مع أسطول فرنسى فى الاستيلاء على نيس وفيلفرانش من الإمبراطور . وفى سن السابعة والسبعين اعتزل القرصان المنتصر الظافر تحيط به كل مظاهر الإجلال والتكريم ، ليقضى نحبه فى فراشه ١٥٤٦ ، وقد بلغ الثمانين .

وسقطت بونا ولاجولتا ثانية فى أيدى المسلمين . ووصلت الإمبراطورية العثمانية من الجزائر إلى بغداد . ولم تجرؤ سوى دولة إسلامية واحدة على تحدى سيطرتها على العالم الإسلامى .

٢ — فارس تحت حكم الصفويين
١٥٠٢ — ١٥٧٦

إن بلاد فارس التى كانت قد نعمت بفترات كثيرة من الخصب الثقافى ، كانت الآن تمر بحقبة أخرى من الحيوية السياسية والابداع الفنى . وعندما أسس الشاه إسماعيل الأول الأسرة الصفوية (١٥٠٢ — ١٧٣٦) كانت فارس تعانى فوضى التمزق بين ملوك ضعاف ، فكان العراق ويزد وسافان وفيروزكه وديار بكر وكاشان وخراسان وقندهار وبلخ وكرمان وأذربيجان ، كلها ولايات مستقلة بعضها عن بعض . وفى حملات جبارة لا ترحم ، غزا إسماعيل أمير أذربيجان معظم هذه الإمارات واستولى على هراة وبغداد ، وجعل ثانية من تبريز عاصمة لمملكة قوية . ورحب الناس بهذه الأسرة من بنى جلدتهم ، تلك الأسرة التى تألق مجدها فيما أسبغت على البلاد من وحدة وقوة ، وعبروا عما يختلج فى نفوسهم ببعث جديد للفن الفارسى .

إن لارتقاء إسماعيل إلى الملك قصة لا تصدق ، ذلك أنه كان فى سن الثالثة عند ما مات أبوه (١٤٩٠) ، وفى الثالثة عشرة شرع يكسب لنفسه عرشاً ، وفى نفس السن لبس التاج وصار شاه فارس . ويصفه المعاصرون

بأنه « شجاع مثل ديك المصارعة الصغير » ، « نشيط رشيق مثل الساطير » (من آلهة الغابات عند الإغريق له ذيل وأذنا فرس) ، قوى عريض المنكبين ، ذو شوارب رهيبة ، وشعر أحمر براق . وكان يستخدم ببراعة سيفاً جباراً بيده اليسرى . وكان فى الرمى بالقوس أوديسيوس آخر ، يصيب بقوسه سبع تفاحات من عشر مرصوصة على صف واحد(٢). ويروى أنه كان « أنيساً لطيفاً كالبنت » ، ولكنه قتل أمه (أو زوجة أبيه) ، كما أمر بإعدام ٣٠٠ من المومسات فى تبريز ، وذبح الآلاف من الأعداء(٣). وقال سائح هندى إنه كان محبوباً لدى الشعب حتى « نسى اسم الله » فى فارس ولم يذكر إلا اسم إسماعيل وحده(٤) .

وكمن سر نجاح إسماعيل فى الدين والجرأة . وكان المذهب الشيعى هو السائد فى فارس ، أى « أشياع » على ، صهر محمد أو زوج ابنته ، ولم يعترف الشيعة بخلفاء شرعيين غير على وخلفائه الاثنى عشر وهم « الأئمة » ، ولما كان الدين والحكومة غير منفصلين فى الإسلام ، فإن لمثل هذا الخليفة ، طبقاً لهذه النظرية حقاً إلهياً فى الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية . وكما اعتقد المسيحيون أن المسيح سوف يعود ليؤسس مملكته على الأرض ، كذلك اعتقد الشيعة أن الإمام الثانى عشر — محمد بن الحسن — لم يمت قط ، وأنه سوف يظهر من جديد فى يوم من الأيام ليقيم حكمه المبارك على الأرض . وكما أدان البروتستانت الكاثوليك بأنهم ارتضوا التقاليد جنباً إلى جنب مع الكتاب المقدس كدليل أو مرشد إلى العقيدة الصحيحة ، كذلك اتهم الشيعة أهل السنة — وهم الغالبية الذين يعتنقون العقيدة الإسلامية الصحيحة ، الذين وجدوا أن الطريق المستقيم ليس فى القرآن وحده بل كذلك فى كل ما أتى الرسول كما جاء فى تقاليد أصحابه وأتباعه . وكما ترك البروتستانت الصلاة على القديسين وأغلقوا الأديرة ، لم يشجع الشيعة التصوف وأغلقوا أروقة الدراويش ، التى كانت مثل أديار أوربا فى بدايتها ، مراكز لكرم الضيافة

والبر والإحسان ، وكما أطلق البروتستانت على مذهبهم اسم « الدين الحق » ، اتخذ الشيعة اسم « المؤمنين »(٥) (المعتقدون الحقيقيون) . ولا يؤاكل الشيعى المتمسك بمذهبه سنياً أبداً ، وإذا وقع ظل مسيحى على طعام شيعى وجب أن ينبذ الطعام على أنه دنس (*)(٦).

وادعى إسماعيل أنه من نسل الإمام السابع « صفى الدين » (نقاء العقيدة) ، وباسمه سميت الأسرة الجديدة . وأعلن إسماعيل أن المذهب الشيعى هو المذهب الوطنى والرسمى لفارس ، وأنه الراية المقدسة التى حارب فى ظلها ، ومن ثم وحد قومه فى إخلاص يتسم بالتقى والورع ضد المسلمين السنيين الذين طوقوا فارس — الأوزبك والأفغان فى الشرق ، والعرب والأتراك والمصريين فى الغرب . ونجحت خطته . وكان شعبه يعبده على أنه قديس (ولى من أولياء الله الصالحين) ، وكان رعاياه يثقون فى قوته الإلهية لحمايتهم ، إلى حد أن بعضهم رفض أن يلبس الدرع فى المعركة(٧) .

وما أن فاز إسماعيل بهذا السند الملتهب حماسة — وهو الشعب — حتى أحس أنه من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى جيرانه . وكان الأوزبك الذين حكموا بلاد ما وراء النهر ، قد بسطوا سلطانهم حتى خراسان ، فانتزع منهم هراة وطردهم من فارس ، ولما اطمأن إلى سلامته فى الشرق ولى وجهه شطر الغرب ضد العثمانيين . واصطدم كل من الطرفين الآخر آنذاك بقوة مقدسة . وقيل فى رواية غير موثوقة إن السلطان سليماً قتل أو سجن ، قبل الذهاب إلى القتال (١٥١٤) ، أربعين ألفاً من الشيعة فى نطاق مملكته ، وإن إسماعيل شنق بعض السنيين الذين كانوا يشكلون الغالبية فى تبريز ، وأمر الباقين بأن يرتلوا يومياً أدعية يلعنون فيها الخلفاء الثلاثة الأولين على

(*) تلك مبالغات من المؤلف ، أثبتناها لمجرد الأمانة فى النقل ، ولعل القارئ لا يعيرها التفاتاً . (المترجم)

اعتبار أنهم اغتصبوا حق على فى الخلافة . ومهما يكن من أمر ، فإن الفرس وجدوا الشيعة فى معركة جالديران عاجزين أمام مدفعية سليم العبوس وجنده الانكشارية . واستولى سلطان العثمانيين على تبريز ، وأخضع شمالى أرض الجزيرة (١٥١٦) ، ولكن جيوشه تمردت ، فتقهقر وعاد إسماعيل إلى عاصمة ملكه تحف به كل عظمة ومجد يمكن أن يحاط بهما ملك عسكرى . وانحط الأدب أثناء حكمه المضطرب القاق ، ولكن الفن ازدهر تحت رعايته ، فقد كان يرعى المصور بهزاد ، وقدر أنه يساوى نصف فارس(٨) . ومات إسماعيل فى سن الثامنة والثلاثين ، بعد أن قضى فى الحكم ٢٤ عاماً . وخلف عرشه لابنه البالغ من العمر عشر سنوات ١٥٢٤ .

وكان الشاه طهماسب الأول ضعيف الإيمان جباناً ، سوداوى المزاج كئيباً مترفاً منغمساً فى اللذات ، وقاضياً خشنا ، يرعى الفنون ويمارسها ، شيعيا تقيا ، كما كان معبود شعبه ، وربما تحلى ببعض فضائل أخفاها عن عيون التاريخ . إن التوكيد المستمر على الدين أرباك الحكومة كما قواها ، وذلك أنه من أجل الدين شنت الحرب اثنتى عشرة مرة ، وظل العالم الإسلامى فى الشرقين الأدنى والأوسط ممزقا متنابذاً من ١٥٠٨ إلى ١٦٣٨ ، وأفاد العالم المسيحى من هذه الفرقة ، حيث انقطع سليمان القانونى عن شن هجماته على الغرب ، ووجه حملاته نحو فارس . وفى ذلك كتب سفير فرديناند فى القسطنطينية يقول : « إن فارس هى التى تقف حائلا بيننا وبين الدمار »(٩) . وفى ١٥٣٣ قاد الوزير الأكبر إبراهيم باشا جيشا تركياً نحو أذربيجان ، واستولى فى طريقه على الحصون الواحد تلو الآخر ، بتقديم الرشوة إلى القواد الفرس ، وأخيراً استولى على تبريز وبغداد دون أن يضرب ضربة واحدة (١٥٣٤) . وبعد أربع عشرة سنة ، وفى أثناء هدنة مع فرديناند ، قاد سليمان جيشاً آخر ضد « الرءوس الحمراء الوضيعة » (وهو الاسم الذى أطلقه الاتراك على الفرس) ، وانتزع

إحدى وثلاثين مدينة ، ثم استأنف هجماته على العالم المسيحى . وفيما بين عامى ١٥٢٥ ، ١٥٤٥ ، عاود شارل المفاوضة مع فارس المرة بعد المرة ، بافتراض التنسيق بين المسيحيين والفرس للوقوف فى وجه سليمان . وابتهج الغرب حين تولت فارس الهجوم وانتزعت أرضروم . ولكن سليمان عاد فى ١٥٥٤ واكتسح مساحات كبيرة من فارس ، وأرغم طهماسب على عقد صلح بقيت مقتضاه بغداد والقسم الأدنى من أرض الجزيرة تحت حكم الأتراك .

وثمة شىء أكثر إمتاعاً من هذه الصراعات الكئيبة تلك هى الرحلات الجريئة المغامرة التى قام بها أنطونى جنكنسون إلى بلاد ما وراء النهر وفارس ، بحثاً عن طريق برى إلى الهند والصين ، وكان مسلك إيفان الرهيب فى هذا الموضوع لطيفاً ودياً ، فقد رحب بجنكنسون فى موسكو ، وبعث به سفيراً له لدى حكام الأوزبك فى بخارى ، ووافق على السماح بدخول البضائع الإنجليزية إلى روسيا معفاة من الرسوم الجمركية ، ومرورها فى نهـــر الفولجا عبر بحر قزوين . وكتبت للرحالة النجاة من عاصفة هوجاء فى هذا البحر ، واصل بعدها الرحلة إلى فارس ووصل إلى قزوين سنة ١٥٦١ . وهناك سلم طهماسب رسائل التحية من ملكة بعيدة ، بدا للفرس أنها سيدة قليلة الشأن تحكم قوما من الهمج ، وكان الفرس ميالين إلى عقد اتفاقية تجارية ، ولكنهم عندما أعلن جنكنسون أنه مسيحى ، أمروه بمغادرة البلاد ، قائلين : « ليس بنا من حاجة إلى مصادقة الكفار » . وبعد أن انصرف من حضرة الشاه ، جاء أحد الخدم فغطى بالرمل المطهر آثار أقدام المسيحى التى دنست قصر الشيعة(١٠) .

وبموت طهماسب (١٥٧٦) انفضت أطول فترة حكم لأى من الحكام المسلمين عدا واحدا . ولكنها فترة من أشد الفترات امتلاء بالنكبات . ولم يتميز هذا العهد بأية آداب يعتز بها الفرس فى ذاكرتهم ، إذا لم تستثن

مذكرات بابر Babur الذى أبعد عن بلده . ولكن الفن على عهد الصفويين ، ولو أنه سيبلغ ذروته متأخرا عنهم ، بدأ فى هذين العهدين (عهد إسماعيل وابنه) ينتج أعمالا تتسم بالعظمة والتألق والنقاوة التى تميزت بها منتجات فارس الغنية لمدة اثنين وعشرين قرنا . وقد أبرزت مقبرة « هارون الولاية » فى اصفهان كل ما أودع فى الرسم الكلاسيكى الفارسى من دقة ورقة ، وأزهى الألوان ، وتقطيع الفسيفساء الخزفية المزخرفة . كما توج بوابة مسجد الجمعة الكبير نصف قبة معقدة . وأسس كذلك فى هذا العصر فى شيراز « مسجد جامع » آخر ، ولكن الزمن لم يبق على شىء منه .

وثمة أمثلة كثيرة دلت على أن أشغال التذهيب الدقيقة والخط صمدت على تعاقب الزمن أكثر مما صمدت آثار العمارة ، وبرزت العناية التى بذلها المسلمون فى إخراج الكتاب (المخطوطات) حتى كادت تجعل منه معبوداً يحوطه الإجلال والحب . إن العرب الذين كانوا فخورين بكل شىء افتتنوا افتتاناً مستساغاً مغفوراً لهم بحروف الهجاء عندهم ، تلك التى وهبت لهم من نفسها سطوراً من جمال حسى : فالفرس ، فوق كل شىء جعلوا من الخط فناً لتزيين محاريب مساجدهم وأبوابهم ، والمعادن التى يصنعون منها أسلحتهم ، والفخار الذين يصنعون منه أعمال الخزف ، ونسيج سجاجيدهم ، ثم المصاحف ودواوين الشعراء ، وكل أولئك تعتز به الأجيال على أنه متعة للعين وبهجة للنفس . أما خط « النستعليق(*) Nastaliq

---

(*) للخط العربى أسلوبان رئيسيان هما الكوفى والنسخ . عرفهما المسلمون فى القرن السابع الميلادى وهو مبدأ التاريخ الإسلامى . وأدخل على هذين النوعين بعض التعديل على مر العصور فى بعض أنحاء العالم الإسلامى ، وظهر فى القرن الثالث عشر الميلادى فى إيران نوع من الخط يعرف بالتعليق ومن مميزاته ميل حروفه من اليمين إلى اليسار فى اتجاهها من أعلى إلى =

(أو الخط المائل) الذى كان قد ازدهر فى عهد التيموريين فى تبريز وهراة وسمرقند ، فقد عاد إلى تبريز على عهد الصفويين ، وذهب معهم إلى اصفهان . وكما ضم المسجد عديداً من الفنون بعضها إلى بعض ، كذلك جمع الكتاب بين الشاعر والخطاط ورسام المنمنمات والمجلد (الذى يقوم بالتجليد) فى تعاون يتسم بالتفانى والإخلاص والورع .

وظل فن التذهيب مزدهراً فى بخارى وهراة وشيراز وتبريز . ويضم متحف الفنون الجميلة فى بوسطن مخطوطة رائعة لشاهنامة الفردوسى ، بإمضاء عراجى محمد القوام الشيرازى (١٥٥٢) ، وفى متحف كليفلند نسخة أخرى من عمل مشهدى الكاتب (١٥٣٨) ، ويضم متحف المتروبوليتان للفن فى نيويورك نموذجاً من أروع نماذج التذهيب والخط فى تبريز ، وهى صحيفة العنوان فى مخطوطة «المنظومات الخمس» لنظامى (١٥٢٥) . وانتقل مركز التذهيب الإسلامى إلى تبريز حين اختارها بهزاد مقراً له (١٥١٠) . وفى أثناء معركة جالديران خبأ الشاه إسماعيل الصفوى المصور بهزاد والخطاط محمود النيسابورى فى كهف ، بوصفهما أثمن ما يمكن أن يقتنى(١١) . ورسم أقاميرك ، تلميذ بهزاد ، فى تبريز واحدة من أروع المنمنمات فى هذا العصر ، وهى صورة « تتويج خسرو وشيرين » (١٥٣٩) وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطـــانى . وعلم ميرك بدوره الفن لتلميذه « سلطان محمد نور الذى ولد فى أسرة غنية ، ولكنه تجاهل حقيقة أن لديه من الوسائل ما يستطيع معها أن يكون لاهياً تافهاً ، فأصبح

= أسفل . وابتكر الخطاط مير على التبريزى فى القرن الخامس عشر « النستعليق » يحتفظ بمميزات النسخ والتعليق معاً . وهو نوع أكثر رشـــاقة من غيره من الخطوط » من كتاب الفنون الإسلامية لمؤلفه م . س ديماند ، ترجمة أحمد عيسى ص ٧٦ — ٨٦ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٤ » . (المترجم)

« اللؤلؤة التى لا تقدر بثمن » فى بلاط شاه طهماسب لأنه فاق كل أهل زماته فى الخط والتذهيب ، وفى تصميم أغلفة الكتب والسجاجيد ، وفيما بين عامى ١٥٣٩ و١٥٤٣ نسخ مخطوطة المنظومات الخمس لنظامى ووضحها بالرسوم ، وثمة صفحة رائعة فى المتحف البريطانى تمثل الملك خسرو ممتطياً صهوة جواد قرنفلى اللون ، وهو ينعم النظر وسط نقوش النباتات والزهور ذوات اللون الأخضر والأسمر والذهبى ، إلى شيرين وهى نصف عارية تستحم فى بركة فضية . وثمة صورة أروع وأزهى ألواناً ، للرسول وقد أسرى به فى السموات السبع على حصانه المجنح « البراق » (ليزور الجنة والنار ! هكذا فى النص الإنجليزى !) والأشكال عبارة عن جمال مجسم ، ولكن المصور تعمد لأسباب دينية ، ألا يكون بها تقاطيع مميزة فردية ، فقد كان الفنان مهتماً بالزخرفة أكثر منه بالتشخيص ، وبالجمال الذى يكون موضع التقدير والاحترام ، وهو جمال يمكن الوصول إليه أحياناً إذا كان ذاتياً أو شخصياً ، أيسر من الوصول إلى الحقيقة التى تفلت دائماً إذا كانت موضوعية . وقد بلغ التذهيب ذروته فى هذه المنمنمات .

وحظيت المنسوجات والسجاجيد بمثل هذه العناية المحببة إلى النفس . ولم يبق شىء من منسوجات هذه العهود ، ولكن المنمنمات تصورها . وتفوق مصممو السجاد وعماله المهرة فى عهد الصفويين . وبدا أن السجاد عنصر أساسى فى حضارة الإسلام . ولم يجلس المسلمون أو يأكلوا على الكراسى ، ولكن على الأرض المفروشة بالسجاد . وهناك سجادة خاصة للصلاة عليها فى العادة رموز دينية وآيات قرآنية ، يسجد عليها المسلمون فى صلواتهم . وكانت السجاجيد مفضلة كهدايا للأصدقاء أو الملوك أو المساجد ، ولذلك أهدى شاه طهماسب عشرين سجادة كبيرة وكثيراً من السجاجيد الصغيرة من الحرير والذهب إلى السلطان سليم الثانى عند ارتقائه عرش آل عثمان ١٥٦٦ . وثمة معالم مميزة من التصميم حددت سجاد هذا

العصر ، وكأنها بستان ، ففيها رسوم النباتات والأزهار ، ومناظر الصيد والزهريات والرسوم المضلعة والمشجرة أو الرسوم النافرة أو البارزة ، وحول هذه الأشكال الأساسية توجد الزخرفة العربية المتعرجة ، مع أشرطة السحب المستمدة من الفن الصينى ، ورموز ذات معان سرية لدى مبتكرها ، وحيوانات تمثل نمط الحياة ، ونباتات وزهور تعطى أريجاً ممثلا فى خيوط ، وطابعاً بهيجاً ، وسرى فى هذا الكل المعقد منطق فنى ، أو تناغم طباق فى الخيوط أدق من موسيقى بالسترينا (ملحن موسيقى دينية فى إيطاليا فى القرن السادس عشر) وأجمل من شعر جوديفا(*) .

ويعود تاريخ بعض القطع المشهورة الباقية حتى الآن من السجاد الإيرانى إلى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر . وإحداها ذات رسوم بارزة ، يربو ثلاثون مليون عقدة من الصوف على سداة من الحرير (٣٨٠ عقدة فى البوصة المربعة) ، ظلت مفروشة لعدة قرون فى أحد مساجد أردبيل ، وهى الآن موزعة بين متحف فكتوريا وألبرت فى لندن ومتحف لوس أنجلوس . وفى أحد أطرافها خرطوشة كتب عليها بيت من شعر حافظ ، وتحته عبارة الفخر : « من صنع العبد . . . . مقصود الكاشانى فى سنة ٩٤٦ هجرية » ، أى ١٥٣٩ م(١٢) . كذلك يوجد فى متحف لوس أنجلوس « بساط التتويج » الهائل الذى استخدم فى تتويج إدوارد السابع ١٩٠١ ، وكان من بين أعظم النفائس فى متحف بوالدى بتزوللى فى ميلان ، قبل تدميره فى الحرب العالمية الثانية ، سجادة بها مناظر صيد من صنع غياث الدين جامى من مدينة يزد ، وهو الذى يحتل فى رسوم السجاد مكانة بهزاد فى المنمنمات .

(*) تقول أسطورة إنجليزية إن Godiva طلبت من زوجها لورد كوفنترى رفع الضرائب الباهظة التى يشكو منها الأهالى . فاشترط لتحقيق مطلبها أن تمتطى جوادا وتسير به فى سوق البلدة وهى عارية ، لا يغطى جسمها إلا شعرها . (دائرة المعارف البريطانية)

(المترجم)

أما سجادة « دوق أنهالت » فى مجموعة دوفين فقد حظيت بشهرة عالميـــة بأرضيتها الذهبية الصفراء : مع زخرفة عربية رائعة ذات الألوان القرمزى والوردى والأزرق الفيروزى . إن السجاد والكتاب من أعظم المميزات التى تميزت بها فارس على عهـــد الصفويين وهى مميزات لا يستطيع أن يتحداها أو يمارى فيها أحد ، وهى تحتل فى ذاكرة الجنس البشرى مكانة رفيعة .

٣ — سليمان القانونى والغرب

خلف سليمان القانونى أباه سليم الأول فى ١٥٢٠ ، وهو إذ ذاك فى سن السادسة والعشرين . وقد كسب لنفسه شهرة لشجاعته فى القتال وكرمه فى صداقته ، وقدرته فى إدارة الولايات التركية . وهيأت له تقاطيعه المليحة وسلوكه المهذب أن يقابل بالترحيب فى القسطنطينية التى شقيت بسليم العبوس ، ووصفه إيطالى رآه عقب توليه العرش مباشرة بأنه طويل نحيل قوى ، ذو عنق طويل جداً ، وأنف متقوس جداً ولحية وشوارب خفيفة ، وبشرة شاحبة رقيقة ، ووجه صارم هادئ ، وبدا وكأنه طالب أكثر منه سلطان(١٣) . ووصفه إيطالى آخر بعد ثمانى سنوات بأنه « شاحب إلى حد رهيب . . . . مكتئب ، زير نساء عجول ، ومع ذلك فهو فى بعض الأحيان وديع مهذب » . أما غسلين دى بوسبك Ghislain de Busbeq سفير آل هبسبرج لدى الباب العالى ، فقد وصف بطريقة تكاد تكون ودية رقيقة ألد أعداء آل هبسبرج فقال :

« لقد كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل . وحتى فى بواكير أيامه ، حين كانت قواعد الحكم فى تركيا تجيز الصفح عن الخطايا ، لم يكن

فى حياته ما يعاب عليه ، لأنه حتى فى أيام شبابه لم يدمن على الخمر ، ولم يقترف أياً من الجرائم غير الطبيعية التى كانت شائعة بين الأتراك ، ولم يستطيع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه فى حب زوجته . . . ومن الحقائق المعروفة جيداً أنه منذ اتخذ منها حليلة شرعية ، كان مخلصاً لها كل الإخلاص ، برغم أنه لا يوجد فى القوانين ما يمنع من اتخاذ خليلات كذلك(١٤) » .

إنه وصف جدير بالملاحظة ، ولكنه يتسم بالملق الشديد . ولا ريب فى أن سليمان كان أعظم وأنبل سلاطين آل عثمان ، وأنه كان يضارع أى حاكم فى عصره من حيث الكفاية والحكمة والخلق ، ولكنا سوف نراه بين الحين والحين موصوماً بالقسوة والحقد والانتقام . ومهما يكن من أمر ، فلنبدأ على سبيل التجربة ، بالنظر إلى صراعه مع العالم المسيحى .

طال أمد الصراع العسكرى بين المسيحية والإسلام آنذاك نحو ٩٠٠ سنة . فقد بدأ حين انتزع العرب المسلمون سوريا من الإمبراطورية البيزنطية (٦٣٤) . واستمر سنة بعد سنة : غزا فيها العرب المسلمون هذه الإمبراطورية ، كما غزا فيها المغاربة المسلمون أسبانيا . وثأر العالم المسيحى لهذا الغزو ، وفى الحروب الصليبية التى غطى فيها الطرفان أطماعهما الاقتصادية وجرائمهما السياسية بستار من شعارات دينية وحماس دينى ، انتقم المسلمون بالاستيلاء على القسطنطينية والبلقان وطردت أسبانيا المغاربة . ودعا البابوات الواحد تلو الآخر إلى شن حملات صليبية جديدة ضد الأتراك ، كما أقسم سليم الأول أن يشيد مسجداً فى قلب رومه . واقترح فرانسوا الأول على الدول

الغربية أن تقضى على دولة الأتراك قضاء مبرماً ، وتقتسم ممتلكاتها فيما بينها ، باعتبارها غنائم من الكفار(١٥) . وأحبط هذه الخطة انقسام ألمانيا فى الحروب الدينية ، وثورة الكوميونات (الوحدات الإدارية) الأسبانية ضد شارل الخامس ، ونكوص فرانسوا الأول نفسه عن اقتراحه وتفكيره من جديد فى التماس العون من سليمان ضد شارل . وربما كان لوثر قد أنقذ سليمان ، كما كانت اللوثرية مدينة له بفضل كبير .

إن كل حكومة تكافح لتوسيع رقعتها ، لتزيد من مواردها ودخولها من جهة ، وإيجاد أرض حاجزة حامية بين حدودها وعاصمتها من جهة أخرى . وارتأى سليمان أن أحسن وسيلة الدفاع هى الهجوم ، فاستولى على معاقل المجر فى سباباكس وبلغراد ، ولما شعر بالاطمئنان والأمن فى الغرب ، وجه قواته ضد رودس حيث احتفظ المسيحيون هناك تحت حكم فرسان القديس يوحنا ، بقلعة منيعة تقع مباشرة على الطرق المؤدية من القسطنطينية إلى الإسكندرية وسوريا ، وبدا لسليمان أن هذا معقل خطير أجنبى فى بحر هو بدون هذا المعقل بحر تركى ، والحق أن سفن القرصنة عند الفرسان انقضت على تجارة المسلمين فى أحد طرفى البحر المتوسط(١٦) ، كما انقض قراصنة المسلمين على تجارة المسيحيين فى الطرف الآخر . وكان مصير المسلمين الذبح إذا أسرهم الفرسان فى حملاتهم(١٧) . كما اعترض الفرسان طريق السفن التى تنقل الحجاج إلى مكة ، إذا ساورهم الشك فى أن لها أغراضاً عدائية . ويقول مؤرخ مسيحى : « على أى الأحوال لم يكن سليمان بحاجة إلى ما يبرر الهجوم على رودس »(١٨) . ويضيف مؤرخ إنجليزى مشهور إلى هذا قوله : « كان من مصلحة النظام العام أن تضم الجزيرة إلى مملكة الأتراك »(١٩) .

وشن سليمان هجومه ومعه ثلثمائة سفينة وثلثمائة ألف رجل . واستمر المدافعون عن الجزيرة بقيادة رئيسهم الأكبر العجوز فيليب دى فيليرز دى ليل — آدم (Phiiuppe de Villiers de L'ile-Adam) ، يقاتلون محاصريهم

لمدة ١٤٥ يوماً ، وأخيراً استسلموا بشروط مشرفة ، منها أن يغادر الفرسان وجنودهم الجزيرة فى أمان ، كما يكون ، فى مدى عشرة أيام ، للسكان الباقين الحرية الدينية الكاملة ، مع إعفائهم من الجزية لمدة خمس سنوات ، وفى يوم عيد الميلاد طلب سليمان أن يرى فيليب ، فواساه وامتدح دفاعه الباسل ونفحه هدايا ثمينة ، كما أبدى السلطان لوزيره إبراهيم : « أنه أسف أشد الأسف لاضطراره إلى إرغام هذا المسيحى على أن يغادر فى شيخوخته وطنه وممتلكاته(٢٠). وفى أول يناير ١٥٢٣ أبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة كريت ، ثم غادروها بعد ثمانى سنين إلى وطن أكثر دواماً فى مالطه . ولطخ سليمان انتصاره بإعدام ابن الأمير جم وحفدته الأطفال لأنهم اعتنقوا المسيحية ، وقد يستخدمون ، كما استخدم جم ، فى المطالبة بالعرش العثمانى .

وفى أوائل سنة ١٥٢٥ ، تلقى السلطان سليمان كتاباً من فرنسوا الأول ، كما استقبل أسيراً من لدن شارل الخامس ، يطلبان منه مهاجمة المجر ، والإسراع إلى نجدة ملك فرنسا . فأجاب السلطان : « إن جوادنا مسرج ، وسيفنا معلق به »(٢١) . إنه على أية حال كان عازماً على غزو المجر منذ زمن طويل . فسار فى أبريل ١٥٢٦ بجيش قوامه مائة ألف رجل وثلاثمائة مدفع . وحث البابا كليمنت السابع الحكام المسيحيين ليهبوا لمساعدة الدولة المهددة ، على حين نصح لوثر الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم ؛ لأن من الواضح أن الأتراك زوار من عند الله ، ومقاومتهم هى بمثابة مقاومة الله(٢٢) . وبقى شارل الخامس فى أسبانيا . وكان من نتيجة ذلك هزيمة المجر فى معركة موهاكز ، وكانت للعالم المسيحى هزيمة أدبية ومادية فى وقت معاً ، وكان من الممكن استرداد المجر لو تعاون الكاثوليك والبروتستانت ، والإمبراطور والبابا فى العمل معاً . ولكن الزعماء اللوثريين ابتهجوا بفوز الأتراك . ونهب جيش الإمبراطور رومة ؛

وفى ١٥٢٩ عاد سليمان فحاصر فيينا بمائتى ألف رجل . ومن برج

سانت ستيفن استطاع كونت نيقولا فون سالم الذى عهد إليه فرديناند بالدفاع عن المدينة — أن يرى السهول والتلال المحيطة بها مغطاة بخيام العثمانيين وجندهم وأسلحتهم . وفى هذه المرة دعا لوثر أتباعه ليشاركوا فى المقاومة ، لأن من الواضح أنه إذا سقطت فيينا ، ستكون ألمانيا هى الهدف الثانى لهجوم العثمانيين . وذاعت الأنباء فى كل أنحاء أوربا أن سليمان أقسم أن يخضع كل أوربا للعقيدة الوحيدة الصحيحة وهى الإسلام . وشق مهندسو الألغام الأتراك الخنادق ، الواحد بعد الآخر ، على أمل نسف الأسوار أو إحداث الانفجارات داخل المدينة ، ولكن المدافعين وضعوا أوعية من الماء فى مواطن الخطر(٢٣) ، وراقبوا الحركات التى قد تدل على العمليات الخفية تحت الأرض . وأقبل الشتاء وعجز خط مواصلات الأتراك الطويل عن توفير المؤن . وفى ١٤ أكتوبر أهاب السلطان برجاله أن يبذلوا محاولة أخيرة حاسمة . ووعد بجوائز ومكافآت سخية ، ولكن الأرواح والأجسام معاً كانت كارهة غير راغبة ، وصد الهجوم مع خسائر فادحة ، وأمر سليمان بالتقهقر ، وقد ملأه الحزن . وكانت أول هزيمة يلقاها ، ولو أنه احتفظ بنصف المجر ، وحمل معه إلى القسطنطينية تاج سانت ستيفن ، وفسر سليمان لشعبه أنه عاد دون أن ينتصر لأن فرديناند (الذى قبع طيلة الحصار آمناً فى براج) كان قد رفض أن يحارب ، ووعد السلطان بأنه قريباً جداً سوف يصيد شارل ذاته ، الذى تجاسر على أن يسمى نفسه إمبراطوراً ، وينتزع منه بالقوة السيادة على الغرب .

ونظر الغرب إلى السلطان ووعيده بعين الجد ، وساد الذعر روما . وفرض البابا كليمنت السابع ، الذى كان وطيد العزم لأول مرة ، الضرائب حتى على الكرادلة ، لتوفير المال اللازم لتحصين أنكونا وسائر الثغور التى يمكن أن يدخل منها العثمانيون إلى إيطاليا .

وفى أول أبريل ١٥٣٢ تقدم سليمان نحو الغرب مرة أخرى . وكانت

مغادرته العاصمة مشهدا أحسن إخراجه ، فكان يتقدم المسيرة ١٢٠ مدفعاً ، يتبعها ٨٠٠٠ من الانكشارية وهم خيرة جنود المملكة ، وسار بعد ذلك ألف جمل تحمل المؤن ، وألفان من صفوة الخيالة لحراسة الراية المقدسة — نسر الرسول — يتبعهم آلاف من أبناء الأسرى المسيحيين يرتدون ملابس من ذهب ، وقبعات حمراء مزودة بالريش ، يلوحون مزهوين بالحراب فى شجاعة بريئة ، أما حاشية الملك وحرسه فكانوا رجالا أشداء ذوى طلعة بهية ، وامتطى السلطان بينهم جواداً كستنائى اللون مرتدياً القطيفة القرمزية الموشاة بالذهب تحت عمامة بيضاء مرصعة بالأحجار الكريمة . وسار وراءه الجيش الذى يبلغ فى جملته نحو مائة ألف رجل . ومن ذا الذى يستطيع مقاومة مثل هذه الأبهة والقوة ؟ ليس إلا العناصر والزمن !

ولكى يقابل شارل هذا التيار الجارف ، تلقى ، بعد توسلات كثيرة ، منحة من مجلس الديت الإمبراطورى ليجند أربعين ألف رجل ويعد ثمانية آلاف جواد ، وقدم هو وفرديناند بالإضافة إلى ذلك ، ثلاثين ألف رجل على حسابهما الخاص . وبهذه القوة التى تجمعت فى فيينا وعدتها ٧٨٫٠٠٠ رجل . انتظرا الحصار . ولكن السلطان عوق فى جونز Güns ، وهى مدينة صغيرة محصنة تحصيناً شديداً . ولكن حاميتها لم تزد على ٧٠٠ رجل أحبطوا لمدة ثلاثة أسابيع كل محاولة بذلها الأتراك لاختراق الأسوار التى هدموها إحدى عشرة مرة ، وفى كل مرة كانت الحامية المدافعة تسد الثغرات بالمعادن والجثث والاستماتة فى الدفاع . وأخيراً أرسل سليمان جواز مرور وبعض الرهائن إلى القائد — نيقولا جوريشتز Jurischitz — يدعوه إلى عقد مؤتمر ، فحضر واستقباله الوزير الأكبر بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وقد امتدحوا شجاعته وقيادته ، مع شىء من الحزن والأسى ، وأهداه السلطان رداء الشرف ، وضمن له عدم القيام بأى هجوم آخر ، وأعاده إلى قلعته برفقة حرس رائع من الضباط الأتراك ، وسار إلى فيينا هذا

« السيل الجارف » من الجيش الذى لا يقهر ، والذى أوقع به الهزيمة سبعمائة جل فحسب .

وهناك أيضاً لم يحظ سليمان بفريسته ، فإن شارل لم يكن ليخرج للقتال ، فقد كان من الحمق والغباء أن يضيع مزايا دفاعاته ليقامر بالقتال فى ميدان مكشوف . وقدر سليمان أنه لو كان قد أخفق فى الاستيلاء على فينا التى كان يسيطر عليها عشرون ألف جندى ليس لهم إمبراطور أو ملك ظاهر فى الميدان ، فإنه لا يكاد يحسن صنعاً أمام ٧٨٫٠٠٠ ينفخ فيهم روح الحماسة والحياة ملك كان قد أعلن صراحة وعلى رءوس الأشهاد أنه يرحب بالموت ويستعذبه فى هذا الصراع كخاتمة شريفة نبيلة لهذه الحيـــاة الدنيا ، وهى خاتمة يصبو إليها كل مسيحى . وانصرف السلطان ، وخرب ونهب فى طريقه ستيريا والقسم الأدنى من النمسا ، وأخذ كثيراً من الأسرى ليشرف بهم تقهقره . وربما كان من المزعج له أن يسمع أنه حين كان يتسكع جيئة وذهوباً دون جدوى عبر أراضى المجر ، كان أندريا دوريا قد طارد الأسطول التركى حتى اختفى ، واستولى على بتراس وكورون على شاطئ البلوبونيز .

ولما أرسل فرديناند إلى القسطنطينية مبعوثاً يطلب الصلح رحب به سليمان « لا إنه سوف يعقد الصلح » لا لمدة سبع سنوات ، ولا لخمس وعشرين سنة ، ولا لمائة سنة ، ولا لقرنين من الزمان ، أو ثلاثة قرون ، ولكن فى الحق إلى الأبد ، إذا لم ينقضه فرديناند نفسه » ، وإنه سوف يعامل فرديناند كابن له(٢٤) . على أنه طلب ثمناً فادحاً ، وهو أنه ينبغى على فرديناند أن يرسل إليه مفاتيح مدينة جرو Grau ، رمزاً للخضوع والولاء ، وكان فرديناند وشارل كلاهما متلهفين على تحرير أسلحتهما ضـــد المسيحيين ، إلى حد أنهما كانا مستعدين لتقديم بعض التنازلات للأتراك . وأرسل فرديناند مفاتيح المدينة

وأطلق على نفسه « ابن سليمان » ، واعترف بسيادة سليمان على معظم أراضى المجر (٢٢ يونية ١٥٣٣) ؛ ولم يعقد الصلح مع شارل ، واسترد السلطان بتراس وكورون ، وراوده حلم بسط سلطانه على فيينا وتبريز .

وفى ١٥٣٦ استولى على تبريز ، ثم عاد إلى الغرب . وطرح الدين جانباً ، وارتضى أن يتعاون مع فرانسوا الأول فى حملة أخرى ضد شارل . وعرض على الملك أحسن الشروط وهى أنه لا صلح مع شارل إلا عند تسليم جنوه وميلان وفلاندرز إلى فرنسا ، ثم السماح للتجار الفرنسيين بالإبحار والبيع والشراء داخل نطاق الإمبراطورية العثمانية ، على أن يعامل الأتراك بالمثل ، ومنح قناصل فرنسا فى الإمبراطورية الولاية القضائية المدنية والجنائية على الرعايا الفربسيين فيها ، كما يتمتع هؤلاء الرعايا بالحرية الدينية الكاملة(٣٥) . وهكذا أصبحت « الامتيازات الأجنبية » كما وقعت فى هذه الاتفاقية ، نموذجاً يحتذى فيما جاء بعد ذلك من معاهدات بين الدول المسيحية ودول الشرق .

ورد شارل على ذلك بتكوين حلف يضم الإمبراطورية والبندقية والبابا . وانضم إليه فرديناند وهكذا أصبح قصير الأمد جداً ما كان مقدراً أن يكون أبدياً . وخانت البندقية وطأة الهجوم التركى وفقدت ممتلكاتها فى بحر إيجه وشاطئ دلماشيا ، ووقعت صلحاً منفرداً (١٥٤٠) . وبعد سنة واحدة توفى دمية سليمان أو تابعه الحاكم فى بودا ، وجعل سليمان من المجر ولاية عثمانية ، وأرسل فرديناند بعثة إلى تركيا تطلب الصلح ، وأخرى إلى فارس تحرض الشاه على مهاجمة الأتراك . فتقدم سليمان نحو الغرب (١٥٤٣) واستولى على جرو وستولوزنبرج ، وضم مزيداً من أراضى المجر إلى الباشا (الحاكم التركى) فى بودا . وفى ١٥٤٧ ، حين كان مشغولا بالفرس ، منح الغرب هدنة لمدة خمس سنوات ، ولكن الطرفين نقضاها . حيث توسل البابا بول الرابع إلى الأتراك أن يشنوا الهجوم على فيليب الثانى الذى

كان بابوياً أكثر من البابوات(٢٦) . وأطاق موت فوانسوا وشارل يدى فرديناند فى الوصول إلى الصلح . وفى صلح براج ١٥٦٢ ، اعترف فرديناند بحكم سليمان فى المجر وملدافيا ، وتعهد بدفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دوكات ، ووافق على دفع تسعين ألفاً كمتأخرات .

وبعد عامين آخرين لحق بأخيه . وهكذا بقى سليمان على قيد الحياة بعد موت ألد أعدائه ، وكم من البابوات لم يعمر هو بعـــدهم ؟ لقد بسط سلطانه على مصر وشمال أفريقية ؛ وآسيا الصغرى وفلسطين وسوريا ، والبلقان والمجر . وسيطرت البحرية التركية على البحر والمتوسط . وأثبت الجيش التركى شجاعته الفائقة شرقاً وغرباً وأثبتت الحكومة التركية جدارتها وقدرتها فى فن الحكم والدبلوماسية ، قدر ما كان لمنافسيها . وفقد المسيحيون رودس وبحر إيجه والمجر ، وعقدوا صلحاً ذليلا مهيناً . وبات العثمانيون آنذاك أكبر دولة فى أوربا وأفريقية ، إن لم يكن فى العالم كله .

٤ — الحضارة العثمانية

أولا — الحكومة :

هل كان العثمانيون متحضرين ؟ الحق أن الانطباع بأن العثمانيين كانوا متبربرين همجيين إذا قورنوا بالمسيحيين ليس إلا وهماً قصد به تقربة الذات . فإن أساليبهم فى الزراعة وعلومهم كانت على الأقل تضارع ما كان منها لدى الغرب . فالأرض كان يفلحها مستأجرون من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين كان عليهم فى كل جيل أن يستحوذوا على أراضيهم بخدمة السلطان بطريقة مرضية ، فى الإدارة وفى الحرب . وباستثناء النسيج والخزف . وربما الأسلحة والدروع ، لم تكن الصناعة قد أقامت بعد نظام المصانع ، كما كان الحال فى فلورنسه وفى فلاندرز ، ولكن الحرفيين الأتراك كانوا مشهورين بمنتجاتهم الممتازة . ولم يشعر الأغنياء أو الفقراء بالأسى والحزن

لانعدام النظام الرأسمالى . ولم يبلغ التجار المسلمون فى القرن السادس عشر من النفوذ السياسى أو المركز الاجتماعى ، ما بلغه نظراؤهم فى أوربا الغربية . وتميزت التجارة بين الأتراك بعضهم البعض بالأمانة النسبية ، ولكن بين الأتراك والمسيحيين كان المال مستباحاً : وتركت التجارة الأجنبية فى معظمها للأجانب . وسارت قوافل المسلمين ، فى صبر وجلد ، على الطرق البرية التى كانت معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، إلى آسيا وأفريقية ، حتى عبر الصحراء ، وكانت الأنزال الصحراوية ، ومعظمها أسسه سليمان ، تقدم للتاجر أو السائح أماكن للاستراحة على الطريق . وسيطرت سفن المسلمين حتى سنة ١٥٠٠ على الطرق البحرية من القسطنطينية والإسكندرية ، عبر البحر الأحمر إلى الهند وجزر الهند الشرقية ، حيث كان التبادل يتم مع البضائع التى حملتها السفن الشراعية الصينية . وبعد أن فتحت رحلة فاسكودا جاما وانتصارات البوكرك البحرية — فتحت الهند أمام التجار البرتغاليين ، فقد المسلمون سيادتهم على المحيط الهندى ، ودخلت مصر وسوريا وفارس والبندقية طور اضمحلال تجارى عام .

وكان التركى رجل بر وبحر معاً . وكان اهتمامه بالدين أقل من اهتمام معظم سائر المسلمين ، ولكنه كذلك نظر بعين الإجلال والإكبار إلى الصوفية والدراويش والأولياء ، واستمد شريعته من القرآن ، وتلقى تعليمه فى المسجد ، ونبذ فى عبادته ، مثل اليهود ، الصور المنحوتة ونظر إلى المسيحيين على أنهم مشركون وثنيون . وكان الدين والدولة شيئاً واحداً ، وكان القرآن والسنة هما القانون الأساسى . وكان العلماء الذين فسروا القرآن هم أنفسهم أيضاً المعلمين والمحامين والقضاة ورجال القانون فى المملكة . وأمثال هؤلاء العلماء هم الذين جمعوا فى عهد محمد الثانى وسليمان الأول مجموعات القوانين العثمانية النهائية .

وكان المفتى ، أو شيخ الإسلام ، على رأس جماعة العلماء ، وكان أعلى

قاض فى البلاد بعد السلطان والوزير الأكبر . ولما كان الموت حتما مقضياً على السلاطين ، وكانت جماعة العلماء قائمة دوماً ، فإن هؤلاء المشرعين الدينيين هم الذين حكموا الحياة اليومية فى الإسلام . ولما كانوا يفسرون الحاضر على أساس من شرائع الماضى ، فقد تشبعوا بروح المحافظة وأسهموا فى ركود الحضارة الإسلامية بعد وفاة سليمان . وعزز الإيمان بالقضاء والقدر — أو كما يقول الأتراك قسمة الإنسان أو نصيبه — روح المحافظة هذه : أى أنا حيث أن الله قدر لكل نفس حظها ، فإن ضجر الإنسان بما قسم له ضرب من البعد عن الدين والتعمق فيه ، فكل شىء فى هذه الدنيا ، والموت خاصة ، هو من أمر الله ويجب الرضا به دون تذمر أو شكوى . وقام بين الحين والحين من ذوى التفكير الحر من يتحدث بصراحة بالغة ، ولكن نادراً ما كان يحكم عليه بالإعدام . ومهما يكن من أمر ، فإن العلماء عادة أجازوا قدراً كبيراً من حرية الفكر ، ولم يكن فى تركيا الإسلامية محاكم تفتيش .

وتمتع المسيحيون واليهود فى ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية ، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم فى الأمور التى لا يكون المسلمون طرفاً فيها(٢٧) . واحتضن محمد الثانى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً ، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك فى مقاومة الصليبيين . وعلى الرغم من أن المسيحيين انتعشوا تحت حكم السلاطين ، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً . فقد كانوا فى حقيقة الأمر عبيداً أرقاء ، ولكن كان فى مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول فى الإسلام ، وفعل الملايين منهم ذلك . أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش ، لأن الحروب الإسلامية كانت فى ظاهرها مقدسة من أجل تحويل الكفار إلى الإسلام . وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية ، وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض ، وكان

لزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم ، حتى ينشأ تنشئة إسلامية فى خدمة السلطان .

وكان السلطان والجيش والعلماء هم الدولة . وإذا وجه السلطان النداء ، جاء كل رئيس إقطاعى ومعه قواته المجندة ليشكلوا فوق الخيالة الذين بلغ عددهم فى عهد سليمان ١٣٠،٠٠٠ رجل . وكان سفير فرديناند ينظر بعين الحسد إلى أبهة تجهيزاتهم : ملابسهم المصنوعة من البروكار (الحرير المتصب) أو الحرير ذى اللون القرمزى أو الأصفر الفاتح أو الأزرق القاتم ، وأطقم الخيل التى تتألق بالذهب والفضة والجواهر ، فوق أحسن جياد رأتها عينا بوسبك Busbeq وتكونت صفوة المشاة من أبناء الأسرى ودافعى الجزية المسيحيين الذين كانوا ينشأون على خدمة السلطان فى قصره ، أو إدارة البلاد ، وفوق كل شىء فى الجيش ، حيث كانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد . وكان مراد الأول قد أنشأ هذه الفرقة الفذة (١٣٦٠) ، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذى يحتمل أن يكون مصدر خطر . ولم يكن عددهم كبيراً — نحو عشرين ألفاً فى عهد سليمان . وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية ، وكان محرماً عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية ، ويلقنون الروح العسكرية والمجد الحربى والعقيدة الإسلامية ، وكانوا شجعاناً فى الحرب ، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم ، وجاء بعد هؤلاء الجنود المتفوقين ، الميلشيا (جند الطوارئ) ، وكانوا نحو مائة ألف ، أشرف السباهى والانكشارية على تدريبهم وتغذيتهم بالروح العسكرية . وكانت الأسلحة المفضلة لا تزال هى القوس والنشاب والرماح ، وكانت الأسلحة النارية فى بداية استعمالها ، وفى الاشتباكات عن قرب كانت القضبان الشائكة والسيوف القصيرة هى المفضلة . وكان الجيش والعلوم العسكرية على عهد سليمان أفضل ما فى العالم من نوعهما فى ذاك

العصر ، ولم يضارع أى جيش آخر جيش سليمان فى سلاح المدفعية أو فى حفر الخنادق والهندسة العسكرية أو فى النظام والروح المعنوية ، أو فى العناية بصحة الجنود ؛ أو فى تموين الأعداد الهائلة من الجنود على مسافات بعيدة . ومهما يكن من أمر فإن الوسيلة كانت ممتازة لمجرد خدمة غاية معينة ، وأصبح الجيش غاية فى حد ذاته ، حيث كان لزاماً ، للحفاظ على نظامه وكبح جماحه ، أن يخوض الحروب . وبعد سليمان أصبح الجيش ، والانكشارية فوق كل شىء — سادة على السلاطين .

وكان المجندون الذين تحولوا إلى الإسلام من أبناء المسيحيين يشكلون غالبية الهيئة الإدارية فى الحكومة التركية المركزية . وكان حقاً علينا أن نتوقع أن يخشى السلطان المسلم أحاطته برجال يحنون « الزعيم الوطنى الألبانى » اسكندر برج ، ويحنون إلى دين آبائهم ، والأمر على النقيض من ذلك ، فإن سليمان آثر هؤلاء المتحولين عن دينهم ، لأن فى الإمكان تدريبهم منذ نعومة أظفارهم على مهام محددة فى الإدارة . والأرجح أن بيروقراطية الدولة العثمانية كانت أقدر ما وجد من نوعها فى النصف الأول من القرن السادس عشر(٢٨) ، ولوكانت عرضة للرشوة بشكل يسىء إلى سمعتها ، وضم الديوان — وهو بمثابة الوزارة فى الحكومات الغربية — كبار رجال الإدارة تحت رئاسة الوزير الأكبر عادة . وكان لهذا الديوان سلطات استشارية أكثر منها تشريعية . وكانت توصياته تصبح عادة قانوناً بمقتضى قانون أو مرسوم من السلطان . وكانت السلطة القضائية يتولاها القضاة والأئمة (كبار القضاة) من العلماء . ولحظ أحد المراقبين الفرنسيين نشاط المحاكم وسرعة البت فى المحاكمات وصدور الأحكام(٢٩) ؛ كما اعتقد مؤرخ إنجليزى كبير أن « سير القضاء فى عهد الحكام العثمانيين الأولين كان فى تركيا أفضل منه فى أية بقعة فى أوربا ، وأن رعايا السلطان المسلمين كانوا أدق نظاماً من معظم

الجاليات المسيحية ، وأن الجرائم كانت أندر»(٣٠) . وكان الانكشارية يقومون بوظيفة الشرطة فى شوارع القسطنطينية التى يحتمل خلوها من حوادث القتل أكثر من أية عاصمة أوربية أخرى(٣١) . وفضلت الأقاليم التى وقعت تحت الحكم الإسلامى — رودس ، اليونان ، البلقان — فضلت هذا الحكم على أحوالها السابقة فى ظل حكم الفرسان أو البيزنطيين أو البنادقة ، حتى بلاد المجر نفسها ارتأت أن الأحوال فيها صارت تحت حكم سليمان إلى أحسن مما كانت عليه أيام آل هبسبرج(٣٢) .

وكانت معظم مكاتب الإدارة فى الحكومة المركزية مستقرة فى « السراى » أى المساكن الإمبراطورية — وهى ليست قصراً ، ولكن مجموعة مبان وحدائق وساحات ، تضم السلطان وحريمه وخدمه ومعاونيه وثمانين ألفاً من البيروقراطية . وكان لهذا النطاق الذى يبلغ محيطه ثلاثة أميال ؛ باب واحد ذو زخرفة رائعة ، أطلق عليه الفرنسيون « الباب العالى » ، وهو اصطلاح حدث فى شىء من لغو الحديث ، أن قصد به الحكومة التركية نفسها . وجاء فى المقام الثانى بعد السلطان فى هذا التنظيم المركزى الوزير الأكبر . وأصل الكلمة عربية ومعناها حامل الأثقال ، والحق أن الوزير نهض بأعباء ثقيلة ، فكان على رأس الديوان ، والبيروقراطية ، والقضاء ، والسلك الدبلوماسى ، كما أشرف على العلاقات الخارجية ، وأجرى التعيينات الكبرى ، كما قام بأدق المهام الرسمية فى أكثر الحكومات الأوربية ولعاً بالرسميات ؛ وأما أشق التزامات الوزير فهى إرضاء السلطان فى كل هذه الأمور : حيث كان الوزير عادة مسيحياً ثم أسلم . وبعبارة أدق ، هو عبد ، ويمكن أن يلقى حتفه دون محاكمة بكلمة من سيده ، وأثبت سليمان نفاذ بصيرته وسداد رأيه باختيار وزرائه الذين أسهموا إسهاما كبيراً فى نجاحه ؛ وكان إبراهيم باشا (إبراهيم الحاكم) يونانياً أسره قراصنة المسلمين وأحضروه إلى سليمان باعتباره عبداً يبشر بحسن المستقبل .

ووجد سليمان أنه متعدد القدرات إلى حد أنه وكل إليه الأكثر فالأكثر من الصلاحيات والمهام ، وأجرى عليه راتباً سنوياً قدره ٦٠ ألف دوكات (١٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار ؟) وزوجه من أخت له ، وآكله بانتظام ، واستمتع بحديثه ومعزوفاته الموسيقية وبمعرفته باللغـــات ، والآداب ، وحسن اطلاعه على أمور الدنيا . وعلى الطريقة الشرقية الأنيقة أعلن السلطان سليمان أن « كل ما يقوله إبراهيم ينبغى أن يعتبر كأنه صادر من ذات فيه الذى ينثر اللآلىء(٣٣) . تلك كانت واحدة من أعظم صداقات التاريخ ، حتى فى أساطير اليونان القديمة .

وثمة حكمة واحدة كانت تعوز إبراهيم — تلك هى أن يخفى زهوه الداخلى بتواضع خارجى أو ظاهرى . لقد كان لديه كثير من الأسباب التى تجعله يزهو بنفسه ، فهو الذى سما بالحكومة إلى أعلى درجات المقدرة والكفاية ، وبفضل دبلوماسيته هو استطاع أن يشيع الفرقة والانقسام بين دول الغرب بتدبير التحالف مع فرنسا ، وهو الذى أعاد الهدوء إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، حين سار سليمان بجيشه إلى المجر ، بإصلاح المساوئ ومعاملة الجميع بالعدل والكياسة . وكذلك كان له العذر فى أن يكون حذراً متوجساً ، فإنه لم يزل عبداً ، وكلما ارتفع رأسه ، ازداد رقة ودقة ذلك الخيط المعلق منه سيف السلطان المصلت على رقبته . وقد أغضب الجيش حين حرم عليه سلب تبريز وبغداد ، وحاول منعه من سلب بودا . واستطاع فى هذا السلب أن ينقذ جزءاً من مكتبة ماتياس كورفينوس ، وثلاثة تماثيل من البرونز لهرمز وأبوللو وأرتميز ، ووضعها أمام قصره فى القسطنطينية ، وحتى سيده المتحرر اضطرب لهذه الإساءة الموجهة إلى الوصية السامية بتحريم النحت ، واتهمته ثرثرة الناس بامتهان القرآن . وأقام فى بعض الأحيان حفلات تفوق فى نفقتها وبهائها حفلات السلطان ، واتهمه أعضاء الديوان بأنه يتحدث وكأنه كان يقود السلطان كأسد أليف

موثق بالقيود . واغتاظت روكسيلانا محظية الحريم من نفوذ إبراهيم ، ويوماً بعد يوم ، وبفضل إصرار النساء ، ملأت أذن الإمبراطور بالشبهات والشكاوى ، حتى اقتنع السلطان أخيراً ، وفى ٣١ مارس ١٥٣٦ ، وجد إبراهيم مخنوقاً على فراشه ، ويحتمل أن يكون ذلك بأمر ملكى وهذا عمل ينافس فى وحشيته إحراق سرفيتس أو بركوين .

وأكثر وحشية من هذا بكثير ، قانون قتل الأخوة الإمبراطوريين . وقد عبر عنه محمد الثانى صراحة فى سجل القوانين : « إن غالبية المشرعين أعلنوا أن اللامعين من أبنائى الذين يتولون العرش ، يكون لهم الحق إعدام إخوتهم تأميناً للسلام فى الدنيا ، وعليهم أن يعملوا طبقاً لهذا »(٢٤) . وبهذا حكم محمد الفاتح ، فى هدوء ، بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا الكبار منهم . وثمة سيئة أخرى من سيئات النظام العثمانى ، وهى أن تؤول ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام ، إلى السلطان الذى كان لذلك دائماً ، تحت تأثير الإغراء بتحسين موارده المالية ، يصم أذنيه دون أى نداء أو رجاء ولا بد من أن نضيف أن سليمان قاوم هذا الإغراء . وعلى النقيض من مثل هذه المساوئ فى الحكم الفردى المطلق ، يمكن أن نعترف بديمقراطية غير مباشرة فى الحكومة العثمانية ، تلك هى أن الطريق إلى للرفعة والمكانة العالية ، فيما عدا السلطنة ، كان مفتوحاً أمام جميع المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام ومهما يكن من شىء ، فربما برهن نجاح السلاطين الأوائل على أن قدرة الأرستقراطية وراثية حيث لم يكن هناك أية حكومة معاصرة احتفظت بمثل هذا المستوى العالى من القدرة والكفاية لأمد طويل ، كما كان الحال فى العرش العثمانى .

ياً ـ الأخلاق :

إن تباين الطرق والأساليب عنـــد العثمانيين والمسيحيين أوضح بشكل صارخ التنوع الجغرافى والزمنى فى القوانين الأخلاقية . فقد ساد تعـــدد الزوجات بهدوء حيثما كانت المسيحية البزنطية حديثاً جداً قد اقتضت رسمياً آحادية الزواج ، واختبأت المرأة فى أروقة الحريم أو وراء برقعها أو خمارها ، حيثما كانت يوماً قد اعتلت عرش القياصرة . ولبى ســـليمان فى إخلاص وتفان كل حاجيات حريمه دون شىء من وخزات الضمير التى ربما شوشت أو عززت المغامرات الجنسية الطائشة التى كان يقوم بها فرانسوا الأول أو شارل الخامس أو هنرى الثامن أو الإسكندر السادس . إن المدنيـــة التركية ، مثل المدنية اليونانية ، احتفظت بالمرأة بعيـــداً عن الأنظار والأضواء ، وأجازت قدراً كبيراً من حرية الانحراف الجنسى . إن اللواط عند العثمانيين ازدهر حيثما كانت « الصداقة عند اليونان » قد كسبت يوماً المعارك وألهمت الفلاسفة .

أحل القرآن للأتراك الزواج من أربع بالإضافة إلى عدد من الجوارى (فى النص الإنجليزى خليلات) ، ولكن قلة من الناس تحتمل مثل هذا البذخ والتبذير . وكثيراً ما ابتعد العثمانيون المحاربون عن زوجاتهم اللائى ألفوا معاشرتهن ، واتخذوا زوجات أو خليلات من أرامل وبنات المسيحيين الذين قهروهم أو غزوا بلادهم ، ولم تتدخل فى سبيل ذلك أية حزازات عنصرية ، فكم لقى أحر الترحاب بأذرع مفتوحة نساء يونانيات أو صربيات أو ألبانيات أو مجريات أو ألمانيات أو إيطاليات أو روسيات أو مغوليات أو فارسيات أو عربيات ، وأصبحن أمهات لأطفال كانوا على قدم المساواة يعتبرون أبناء شرعيين عثمانيين . وكاد الزنى أن يكون غير ضرورى فى مثل هذه الظروف ، وإذا حدث كانت عقوبته صارمة ،

فكانت المرأة الزانية تلزم بشراء حمار تركبه وتطوف به المدينة ، وكان الزانى يجلد مائة جلدة ، ثم يقبل جلاده ويكافئه . وكان الرجل يستطيع أن يطلق زوجته بمجرد الإعلان أو الإفصاح عن قصده (أو أن يقسم يمين الطلاق) ، أما الزوجة فلم تكن تستطيع أن تخلص نفسها إلا برفع دعوى معقدة معوقة .

وظل سليمان اعزب حتى سن الأربعين . فمنذ أسر تيمور زوجة بايزيد الأول — والمزعوم أنه هو وبنى عشيرته من التتار آذوها وأساءوا معاملتها — فإن سلاطين آل عثمان ، لتفادى أية مهانة أخرى مثل هذه ، استنوا قاعدة ألا يتزوجوا ، وألا يشاركهم فراشهم إلا الجوارى[٣٥] . وضم حريم سليمان نحو ٣٠٠ جارية كلهن مشتريات فى السوق أو أسيرات فى الحرب وكلهن تقريباً من أصل مسيحى . وإذا توقع النسوة زيارة السلطان ارتدين أجمل ثيابهن ووقفن صفوفاً لتحيته ، وكان هو يسلم على أكبر عدد منهن ، قدر ما يسمح به وقته ؛ ويضع منديله على كتف من نالت إعجابه منهن بصفة خاصة . حتى إذا قضى وطره وانسحب فى ذاك المساء ، طلب إلى من تلقت المنديل أن تعيده إليه ، وفى صباح اليوم التالى كان يهدى إليها ثوب من قماش من ذهب ، وتزداد مخصصاتها . وقد يبقى السلطان فى الحريم ليلتين أو ثلاثاً ينثر هباته السخية ، ثم يعود إلى قصره ليقضى ليله ونهاره بين الرجال . وقلما ظهر النســـاء فى قصره أو اشتركن فى الولائم أو الحفلات الرسمية . ومع ذلك اعتبر الانضمام إلى الحريم شرفاً عظيما . وإذا بلغت أى من نزيلات الحريم الخامسة والعشرين من عمرها دون أن تحظى يوماً بالمنديل ، أعتقت . وكانت فى العـــادة تجد زوجاً ذا مكانة عالية . ولم يؤد هذا النظام فى حالة سليمان إلى انحلال جثمانى ، لأنه كان يتميز فى معظم الأمور باعتدال رائع .

ولم يكن اختلاط الجنسين سائداً فى الحياة الاجتماعية لدى العثمانيين .

ومن ثم كانت تعوزها ما تشيعه فيها فتنة النساء والثرثرة الضاحكة من بهجة . ومع ذلك كان السلوك مهذباً قدر ما كان فى المسيحية . وربما كان أكثر تهذيباً من أية بقعة أخرى باستثناء الصين والهند وإيطاليا وفرنسا ، وكان عدد الأرقاء المحليين كبيراً ، ولكنهم كانوا يعاملون معاملة إنسانية ، وكانت ثمة قوانين كثيرة لحمايتهم . وكان إعتاقهم أمراً ميسوراً(٣٦) . وعلى الرغم من أن العناية بالصحة العامة كانت قليلة ، فإن النظافة الشخصية كانت شائعة . وانتقل إلى تركيا نظام الحمامات العامة الذى يبدو أن الفرس أخذوه عن سوريا الهلينستية . وكانت هذه الحمامات فى القسطنطينية وغيرها من المدن الكبرى فى الإمبراطورية العثمانية تبنى من الرخام وتزين بزخارف أخاذة . وكان بعض القديسين المسيحيين يفخرون بأنهم تجنبوا استعمال الماء ، على حين فرض على المسلمين الوضوء والتطهر قبل الدخول إلى المسجد أو أداء الصلاة . والحق أن للنظافة فى الإسلام كانت لاحقة للتدين والتقوى . ولم تكن آداب المائدة لديهم أفضل منها فى العالم المسيحى ، فكان الأكل بالأصابع فى أطباق خشبية حيث لم يكن ثمة شوك . ولم تتناول الخمر فى المنازل قط ، ولكن الكثير منها كان يحتسى فى الحانات ، ولكن الإدمان عليها كان أقل منه فى الغرب(٣٧) . واستعمل المسلمون القهوة فى القرن الرابع عشر ، ولقد سمعنا أول ما سمعنا عنها فى الحبشة ، ومنها انتقلت إلى شبه الجزيرة العربية ، ويقال إن المسلمين استخدموها فى الأصل بغية مساعدتهم على دوام اليقظة والتنبه أثناء تعبدهم(٣٨) . ولم يرد لها ذكر على لسان أى كاتب أوربى قبل سنة ١٥٩٢(٣٩) .

ومن الناحية الجثمانية كان التركى قوياً متين البنيان ، مشهوراً بالجلد وقوة الاحتمال . وكم دهش بوسبك عندما شهد بعض الأتراك يتلقون مائة جلدة على أخمص القدم أو على رسغ القدم ، « حتى لتنكسر عليهم أحياناً جملة عصى من خشب القرانيا دون أن تصدر عنهم أية صرخة(٤٠) . واحتفظ

التركى دوماً بمظهر الوقار ، تساعده ملابسه على إخفاء سخافات البدانة الناتجة عن البطنة . وارتدى عامة الشعب الطربوش ، ولف المتأنقون حوله عمامة ، وكان كلا الجنسين يهوى الأزهار . واشتهرت الحدائق التركية بتعدد الألوان فيها ، ومن هناك ، فيما يبدو ، انتقل إلى أوربا الغربية الليلك والتيولب ، والسنط ، والغار وغيرها . وكان ثمة ناحية جمالية عند الأتراك ، كان من العسير أن تكشف عنها حروبهم . وإنا لندهش مما يرويه السياح الأوربيون من أن الأتراك لم يكونوا ، فيما عدا زمن الحرب ، « قساة بالطبيعة » ، ولكن طيّعين ، وديعين . . . ، مهذبين ، أليفين » ، « شفوقين بصفة عامة » (٤١) . وشكا فرانسيس بيكون من أنهم بدوا أشد رفقاً بالحيوان منهم بالإنسان(٤٢) . وما كانت القسوة لتنفجر إلا إذا تهددت سلامة العقيدة ، وهنا لم يكن التركى يكظم غيظه أو يحد من انفعاله ، بل كانت تثور ثائرته .

وكان التشريع التركى صارماً فى الحرب بصفة خاصة . فلم يؤخذ أى عدو بأية رحمة أو هوادة ، وكانوا يبقون على حياة النساء والأطفال ، أما الأعداء القادرون الأشداء فقد يذبحون ، ولو لم يكونوا مسلحين أو لم يقاوموا ، وحتى دون أن يقترفوا إثماً(٤٣) . ومع ذلك فإن كثيراً من المدن التى استولى عليها الأتراك نهضت أكثر مما نهضت المدن التركية التى استولى عليها المسيحيون . من ذلك أن إبراهيم عندما استولى على تبريز وبغداد ١٥٣٤ ، حرم على جنوده سلب المدينتين أو إيذاء سكانهما ، كذلك ، عندما انتزع سليمان تبريز ثانية ١٥٤٨ ، حماها من السلب والنهب أو الذبح ، ولكن عندما استولى شارل الخامس على تونس ١٥٣٥ لم يستطع دفع رواتب جنوده إلا بإباحة السلب والنهب . ومهما يكن من شىء فإن القانون التركى لافس القانون المسيحى فى العقوبات الوحشية ، فقطعت يد السارق حتى تقل قدرته على السرقة(٤٤) .

وكانت الأخلاق الرسمية بمثل ما كانت عليه فى العالم المسيحى ، فكان الأتراك يفخرون بوفائهم لكلمتهم وعهودهم ، وحافظوا على بنود الامتيازات التى منحوها لأعدائهم ، ولكن رقيب الآداب التركى ، مثل نظيره — سانت جون كابسترانو مثلا — كان يرى أنه ليس ثمة وعد أو عهد يلزم المؤمن بشىء يتعارض مع مصلحة أو واجبات دينه ، وأن السلطان يمكنه أن يبطل المعاهدات التى عقدها هو أو أسلافه[٤٥] ، وذكر السياح المسيحيون أن التركى العادى يتسم « بالأمانه وروح العدل . . . حب الخير والنزاهة والإحسان »[٤٦] . ولكن الأتراك أصحاب المناصب كانوا عادة يرتشون بسهولة ، ويضيف مؤرخ مسيحى ، أن معظم الموظفين الأتراك كانوا مسيحيين من قبل[٤٧] ، ولكن يجدر بنا أن نضيف شيئاً آخر ، وهو أنهم ربوا تربية إسلامية . فالباشا التركى فى ولايته ، مثل البروقنصل (حاكم الإقليم) ، الرومانى ، كان يبادر إلى جمع الثروة ، قبل أن تثور وساوس سيده فيستبدل به شخصاً غيره . إنه كان يتقاضى من رعاياه الثمن الذى كان قد دفعه لتعيينه . وكان بيع المناصب شائعاً فى القسطنطينية أو القاهرة ، قدر شيوعه فى باريس أو رومه .

ثالثاً — الآداب والفنون :

كانت تهيئة السبل لتحصيل العلوم والمعارف أو نقلهما هى أضعف حلقة فى الحضارة العثمانية . وكان التعليم الشعبى مهملا بصفة عامة . وضآلة العلم والمعرفة أمر خطير . وكان التعليم على الأغلب مقصوراً على الطلاب الذين يقصدون إلى دراسة للتربية أو القانون أو الإدارة ، وكانت مناهجها طويلة قاسية . وقضى محمد الثانى وسليمان وقتاً طويلا فى إعادة تنظيم المدارس وتحسينها . ونافس الوزراء سادتهم السلاطين فى إغداق الهبات على هذه الكليات أو المدارس الملحقة بالمساجد . ونعم المدرسون فى هذه

المعاهد بمراكز اجتماعية ومالية أعلى من نظرائهم فى العالم المسيحى اللاتينى . وكانت محاضراتهم تنصب رسمياً على دراسة القرآن ، ولكنهم سعوا كذلك إلى دراسة الآداب والرياضيات والفلسفة ، ولكن خريجيهم ، ولو أنهم كانوا أكثر تحصيلا فى فروع الدين منهم فى العلوم ، ساروا جنباً إلى جنب مع الغرب فى الهندسة وفن الحكم .

وكانت قلة ضئيلة من السكان فقط تعرف القراءة ، ولكن كل هؤلاء تقريباً كانوا ينظمون الشعر ، ولا يستثنى من ذلك السلطان سليمان نفسه ، وكان الأتراك — مثل اليابانيين — يعقدون مسابقات عامة يتلو فيها الشعراء ما جادت به قرائحهم ، وكان السلطان سليمان يطيب له ، مجاملة وكياسة منه — أن يرأس مثل هذه المباريات الشعرية . ولقد كرم الأتراك مائة شاعر فى هذا العصر ، ولكن انغمارنا فى عظمتنا ومصطلحاتنا نحن ، تركنا جهلة ، لا نعلم شيئاً حتى من أمر شاعرهم الغنائى العظيم محمود عبد الباقى الذى شهد أربعة عهود ، لأنه وإن كان فى سن الأربعين عندما توفى سليمان ، فإنه عمر بعده أربعة وثلاثين عاماً . وقد تخلى عن مهنته القديمة ، وهى السراجة ليعيش على شعره . وكان من المحقق أن تعضه الحاجة بأنيابها لو لم يسعفه سليمان بوظيفة لاعمل فيها ، وجمع سليمان المدح إلى الكسب ، فنظم قصيدة يثنى فيها على تفوق شعر عبد الباقى ، ورد عبد الباقى الدَّيْن فكتب مرثية قوية يندب فيها موت سليمان ، وعلى الرغم من أن الترجمة تفقد رواءها بالتماس المحافظة على تعدد القوافى فى الأصل ، فقد يتكشف فيها بعض الانفعال والروعة :

أمير فوارس الحظ ، يا من لفرسه الجرىء المعد للقتال ،
حيثما كر أو فر أو كان مقيداً ، كانت له الأرض كلها ساحة نزال !
أنت يا من لبريق سيفه أحنى المجرى رأسه !

أنت يا من يعرف الفرنجة حق المعرفة وميض شارته المخيف !
مثل ورقة الورد الغضة وضع وجهه برفق فى التراب ،
فتلقته الأرض ، الخازن الأمين ، وأودعته كالجوهرة فى حرز .
الحق أنه كان إشعاعة المكانة الرفيعة والمجد العظيم ،
الشاه ، الاسكندر وعليه إكليل دولة دارا المسلحة ،
وأمام التراب الذى تحت قدميه أحنى الكون رأسه خفيضاً .
وبمثابة مقام العبادة على الأرض كان باب جناحه الملكى .
لقد جعلت أصغر هباته من أحقر متسول أميراً ،
فاق فى الندى والجود ، وفى الرحمة والرأفة أى ملك . . . . . .
لقد لاقى من هذا الكون الحزين المتقلب نصباً ، فلا تحسبه ،
وهو بجوار ربه قد تخلى عن مكانته وعن مجده .
أى عجب إذا لم تر أعيننا شيئاً من الحياة أو من الدنيا بعد ذلك !
إن جماله البارع ، مثل الشمس والقمر ، قد أفاض على الأرض نوراً . .
فلتبك الآن سحب الدم قطرة قطرة ، ولتنحن خفيضة !
وبهذا الألم المبرح الحزين فلتمطر عيون النجوم دمعاً سخيناً مريراً ،
ودخان زفرات القلوب يظهر أن السماء الحالكة السواد تحترق . . .
إن الطائر ، أى روحه ، قد طار عالياً إلى السموات مثل الهامة ،
ولم يخلف وراءه سوى قليل من العظام على الأرض تحته . . .
وليكن خالداً مجد خسرو فى السموات العلى !
ولتنزل رحمة الله على نفس الملك وروحه — وداعاً ![٤٨] .

وكان الأتراك فى شغل شاغل بغزو الدول القوية إلى حد أنهم لم يجدوا فسحة من الوقت للفنون الدقيقة التى كان الإسلام حتى الآن قد اشتهر وتميز بها . وقد أنتج الأتراك منمنمات تميزت ببساطة التصميم وسعة التفكير فى الأساليب . أما التصوير التشخيصى أو التمثيلى فقد ترك للمسيحيين المفترين

الذين ظلوا فى هـــذا العصر يزينون جدران كنائسهم وأديارهم باللوحات الجصية ، فترى مانويل بانسلينوس — الذى ربما استعار بعض الحوافز من الصور الحائطية الإيطالية فى عصر النهضة — قد زين بالجص كنيسة بروتاتون على جبـــل آثوس (١٥٣٥ — ١٥٣٦) ، برسوم أكثر انطلاقاً وجرأة ورشاقة من رسوم العصور البيزنطية . واستقدم السلاطين فنانين من الغرب والشرق — جنتيل بلينى من البندقية ، وشاه فالى ، ووالى جان ، وهما من رسامى المنمنمات فى فارس الهرطوقية . وفى التربيعات المطلية لم يكن الأتراك فى حاجة إلى مساعدة خارجية ، فقد استخدموها إلى درجة تبهر الأبصار ، واشتهرت مدينة ازنيق (بآسيا الصغرى) بصناعة الخزف ، وتخصصت أشقودرة وبروسة ، وهيريك فى آسيا الصغرى فى المنسوجات ، فقد ترك البروكار (المقصبات) والقطيفة — بما فيهما من رسوم الأزهار فى اللونين القرمزى والذهبى — التى أخرجتها هذه المدن ، أثراً شديداً وانطباعاً قوياً فى رسامى البندقية والفلاندرز . وكان السجاد التركى يعوزه البريق الشاعرى الذى تميز به السجاد الفارسى ، ولكن طرزه الفخمة وألوانه الدافئة أثارت الإعجاب فى أوربا . وقد أغرى كلبير مليكه لويس الرابع عشر بأن يأمر النساجين الفرنسيين بتقليد بعض قطع السجاد فى القصر السلطانى فى تركيا . ولكن دون جدوى ، لأن تفوق المسلمين فى هذه الصناعة ظل بعيداً عن متناول المهارة الغربية .

وبلغ الفن التركى ذروته فى مساجد القسطنطينية (لم يطلق على المدينة سم اسطنبول رسمياً إلا فى سنة ١٩٣٠) . فنى تاريخ فارس أو التاريخ الإسلامى ، لم يضارع عظمة عاصمة سليمان ، حتى ولا مدينة مشهد مع فخامة عمائرها المزدحمة ، ولا أصفهان فى عصر الشاه عباس ، ولكن ربما ضارعتها برسوبوليس على عهد كورش . فإن مساجد الآستانة اقتسمت مع الله غنائم العثمانيين فى انتصاراتهم ، وهى آثار تعبر ، فى وقت معاً ، عن

التقوى والزهو وعن تصميم السلاطين على إرهاب شعبهم بالفن قدر إرهابه بالأسلحة . ونافس سليمان جده محمد الفاتح فى تشييد سبعة مساجد تتفق مع جلاله وعظمته ، وفاق أحدها ، وهو الذى حمل اسمه (١٥٥٦) كنيسة أيا صوفيا فى جمالها ، حتى فى محاكاته إياها فى مجموعة القباب الصغرى المحيطة بالقبة الرئيسية الوسطى ، على أن المآذن هنا ، تلك التى ارتفعت مقصورات الآذان الثلاث فيها إلى ارتفاع رهيب ، كانت بمثابة إضافة متألقة تتطابق مع القاعدة الضخمة . أما الداخل فكان كنزاً مربكاً من الزخرفة : نقوش ذهبية على الرخام أو الخزف وأعمـــدة من الحجر السماقى ، وعقود من الرخام الأبيض أو الأسود ، ونوافذ من الزجاج الملون فى إطار من حجر مشجر ، والمنبر المحفور وكأنه وقف على مدى الحياة . وربما كان بذخاً أكثر مما ينبغى إجلاله ، وتألقاً أكثر مما ينبغى لمقام الصلاة . إن الذى وضع تصميم هذا المسجد وسبعين مسجداً أخرى ألبانى اسمه سنان ، وقيل إنه عاش إلى سن العاشرة بعد المائة .

٥ ـ سليمان نفسه

إن الغرب هو الذى أطلق على سليمان لقب « العظيم » ، ولكن شعبه هو الذى سماه « القانونى » أى جامع القوانين ، بسبب مساهمته فى تدوين القانون العثمانى . ولم يكن مهيباً أو عظيماً فى مظهره ، ولكن فى حجم تجهيزات جيوشه ، وفى مدى اتساع حملاته ، وفى زينة عاصمته ، وفى تشييد المساجد والقصور ، والقناطر المائية المشهورة ، عظيما فى روعة كل ما يحيط به وفى حاشيته ، ثم عظيما بطبيعة الحال فى قوة حكمه ، وفى كل ما وصل إليه أو حققه . ووصلت إمبراطوريته من بغداد إلى مدى تسعين ميلا من فيينا ، و ١٢٠ ميلامن البندقية ملكة الأدرياتيك السابقة . وباستثناء فارس وإيطاليا ،

كانت كل المدن التى زخرت بألوان المعرفة اليهودية والمسيحية أو المعرفة القديمة ، داخلة فى نطاق ملكه : قرطاجه ، ممفيس، صور ، نينوى ، بابل ، تدمر ، الإسكندرية ، بيت المقدس ، أزمير ، دمشق ، أفسوس ، نيقية ، أثينا ، وطيبة المصرية وطيبة اليونانية . ولم يضم الهلال قط يوماً ، مثل هذه البقاع والبحار الكثيرة فى منحناه الأجوف .

وهل كان تفوق حكمه يتناسب مع اتساعه ؟ يحتمل أن يكون الجواب سلبياً ، ولكن ينبغى أن نقرر هذا عن أية مملكة مترامية الأطراف ، فيما عدا فارس فى عهد الأخيمينيين ، وروما فى عصر الأنطونينيين . إن الرقعة المحكومة كانت شاسعة إلى حد يتعذر معه إدارتها من مركز واحد قبل ظهور وسائل المواصلات والنقل والطرق الحديثة . لقد دب الانحلال والفساد فى الحكومة ، ومع ذلك قال لوثر : « يقال إنه لم يكن ثمة حكومة زمنية أفضل من حكومة الأتراك »(٤٩) . وفى مجال التسامح الدينى كان سليمان أجرأ وأكرم من أنداده المسيحيين الذين ذهبوا إلى أن الانسجام الدينى أمر ضرورى للقوة الوطنية . ولكن سليمان رخص للمسيحيين واليهود فى ممارسة ديانتهم فى حرية تامة ، وقال الكاردينال بول « إن الأتراك لا يلزمون الآخرين باعتناق عقيدتهم ، ولهذا الذى لا يهاجم ديانتهم ، أن يفصح عن أية عقيدة يعتنقها ، وهو آمن »(٥٠) . وفى نوفمبر ١٥٦١ حين كانت إسكتلندة وإنجلترا وألمانيا اللوثرية تعتبر الكثلكة جريمة ، كما كانت إيطاليا وأسبانيا تعتبران البروتستانتية جريمة ، أمر سليمان بالإفراج عن سجين مسيحى ، « غير راغب فى تحويل أى فرد عن دينه بالقوة »(٥١) . لقد جعل من إمبراطوريته مأوى آمناً لليهود الفارين من محاكم التفتيش فى إسبانيا والبرتغال .

لقد اتضحت عيوبه فى علاقاته العائلية أكثر منها فى حكومته . والجميع متفقون على أنه — برغم حروبه التى بررها بأنها هجوم من أجل الدفاع — كان رجلا مهذباً ، رحيما ، كريما ، إنسانيا ، عادلا(٥٢) . ولم يعجب به

شعبه فحسب ، بل أحبه كذلك . وكان إذا ذهب إلى المسجد يوم الجمعة ، لزم الناس الصمت التام عند مروره ، وانحنى هو تحية لهم جميعا — أيا كانوا يهودا أو مسيحيين أو مسلمين — وكان يقضى فى المسجد ساعتين . ولم نسمع عنه أنه كان يلازم الحريم إلى الحد الذى يضعف من صحته وقوته ، مثل ما حدث لبعض السلاطين من بعده ، ولكننا نجده شديد الإحساس سريع التأثر بانفعالات الحب ، حتى إنه لينسى ما تقتضيه مكانته من حكمة وحذر وعدل ، بل عاطفة الأبوة وحنانها .

وفى أوائل حكمه كانت محظيته الأثيرة لديه جارية شركسية تعرف باسم « وردة الربيع » اتسمت بهذا الجمال الأسمر المليح التقاطيع ، الذى تميزت به لعدة قرون نساء الأقاليم الواقعة حول الطرف الشرقى للبحر الأسود . وأنجبت له هذه المرأة طفلا ، وترعرع الطفل مصطفى حتى أصبح شابا جميلا قادراً محبوبا . وعهد إليه سليمان بعدة مناصب وتبعات هامة ، ودربه ليكون وريثا للعرش قدرما يكون جديراً به . ولكن فى أثناء هذا الحب ، ظهرت فى الأفق « خوريم » — « أى الضاحكة » — وهى أسيرة روسية أطلق عليها الغرب « روكسيلانا » كسبت قلب السلطان وانتزعته من محظيته الشركسية . وبقى السلطان ثملا بجمال خوريم ومرحها وإغوائها وخداعها حتى اكتملت فصول الرواية ووقعت المأساة . وكسر السلطان القاعدة التى استنها الحديثون من أسلافه ، واتخذها زوجة (١٥٣٤) ، وابتهج أيما ابتهاج بما أنجبت له من بنين وبنات . ولكن لما كبرت سن السلطان وبات متوقعا أن يعتلى مصطفى عرش أبيه ، أوجست خوريم خيفة على مصير أبنائها ، الذين يمكن أن يلقوا حتفهم ، قانونا ، على يد السلطان الجديد . ونجحت فى تزويج ابنتها من رستم باشا الذى أصبح الوزير الأكبر فى ١٥٤٤ ، وكان عن طريق زوجته يشاطر خوريم مخاوفها من سطوة مصطفى فى المستقبل .

وكان مصطفى ، فى نفس الوقت ، قد أرسل لتولى حكم ديار بكر ،

واشتهر ببسالته ولباقته وكرمه ، واستخدمت خوريم كل مواهبها وتأثيرها فى تحطيمه ، وألقت فى روع سليمان أن مصطفى يحاول أن يكسب شعبية ، تطلعا منه إلى انتزاع العرش . واتهم رستم باشا الشاب بأنه يتودد سراً إلى الانكشارية ليقفوا إلى جانبه ، وساور الشك السلطان المنهوك الذى كان آنذاك فى التاسعة والخمسين من عمره ، وزاد ارتيابه ، ثم تولاه العجب ، وأخيراً آمن بصحة ما زعموا ، فذهب بنفسه إلى إرجلى Eregli ، ودعا مصطفى إلى خيمته ، وما أن ظهر حتى عاجله بضربة أودت بحياته (١٥٥٣) . عند ذاك وجدت خوريم ورستم باشا أن من اليسير إغراء السلطان بقتل ابن مصطفى لئلا يحاول الثأر لأبيه ، وعين سليم ابن خوريم أميراً ووريثاً للعرش ، وماتت خوريم راضية مطمئنة (١٥٥٨) ، ولكن بايزيد ، وهو أخو سليم ، الذى وجد أن مصيره المحتوم هو الذبح ، أعد جيشاً يتحدى به أخاه ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية ، وهزم بايزيد وفر إلى فارس (١٥٥٩) . ولكن الشاه طهماسب ، لقاء ثلاثمائة ألف دوكات من سليمان ومائة ألف من سليم ، سلم المناضل من أجل العرش ، وشنق بايزيد (١٥٦١) ، كما أعدم أبناؤه الخمسة محافظة على الأمن الاجتماعى . ويروى أن السلطان المتألم توجه إلى الله بالشكر والحمد على موت هذه الذرية المزعجة ، وعلى أنه يستطيع الآن أن يعيش فى سلام[٥٣] .

ولكن السلطان وجد السلام أمراً لا يحتمل ، وأطال التفكير فيما ترامى إليه من أنباء تقول بأن فرسان القديس يوحنا الذين اقتلعهم من رودس ، عادت إليهم قوتهم فى مالطة ، وأنهم كانوا ينافسون قراصنة الجزائر فى غاراتهم الضارية . وفكر السلطان مليا ، وهو آنذاك فى سن الحادية والسبعين ، هل فى الإمكان أن تصبح مالطة جزيرة إسلامية ، ومن ثم يكون البحر المتوسط حرما آمنا للمسلمين . وفى أبريل ١٥٦٤ أرسل أسطولا مكونا من ١٥٠ سفينة عليها عشرون ألف رجل ليستولوا

على الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجى . وقاتل الفرسان ببسالتهم المعهودة تحت قيادة الداهية البارع جان دى لافالت ، واستطاع الأتراك الاستيلاء على حصن سانت إلمو بتضحية ستة آلاف رجل ، ولم يستولوا على شىء بعده ، وأرغمهم وصول الجيش الإسبانى على رفع الحصار .

وما كان السلطان العجوز المهيب ، سليمان القانونى ، ليختم حياته بهذه الخاتمة المرة . وكان مكسيمليان الثانى الذى خلف فرديناند على عرش الإمبراطورية قد منع الجزية التى تعهد الوالد بدفعها للسلطان ، وهاجم المخافر الأمامية التركية فى هنغاريا ، وقرر السلطان القيام بحملة أخرى فقط ، وصمم على أن يقودها بنفسه (١٥٦٦) . وسار بمائة ألف رجل عبر صوفيا ونيش وبلغراد . وفى ليلة ٥ — ٦ سبتمبر ، وفى أثناء حصار حصن زيجتفار ، أسلم السلطان الروح ، وهو منتصب فى خيمته . وكان مثل فاسبازيان ، مزهواً بنفسه إلى حد لا يرتضى معه أن يموت وهو راقد . وفى ٨ سبتمبر سقط الحصن ، ولكن الحصار كلف الأتراك حياة ٣٠ ألفاً من الرجال . وكان الصيف مدبرا ، فعقدت الهدنة ، وعاد الجيش أدراجه حزيناً مغموماً إلى القسطنطينية لا يحمل معه النصر بل جثمان الإمبراطور .

هل ينبغى لنا أن نصدر على سليمان حكماً ونضعه فى المرتبة التى يستحقها ؟ إننا إذا قارناه بنظرائه فى الغرب لوجدناه فى بعض الأحيان أكثر تمدناً وحضارة ، وفى أحيان أخرى أكثر همجية ووحشية . ومن بين الحكام الأربعة الكبار فى هذا النصف الأول من القرن السادس عشر ، يستوقف نظرنا فرانسوا على أنه أكثرهم تمدناً وحضارة ، على الرغم من غروره المتهور واضطهاداته المترددة ، على أنه مع ذلك نظر إلى سليمان على اعتباره حاميه وحليفه الذى بدونه كان يمكن أن يحطم ، إن سليمان حالفه النصر فى صراعه الذى استمر طوال حياته مع الغرب . فالحق أن الإمبراطور مكسيمليان الثانى استأنف دفع الجزية للباب العالى ١٥٦٨ ؛ وأن شارل الخامس

كان قد أوقف تقدم السلطان عند فيينا ، ولكن أى جيش مسيحى جرؤ على الاقتراب من القسطنطينية ؟ لقد كان سليمان سيد البحر المتوسط ، وبدا لبعض الوقت أن رومه ظلت مسيحية لأنه هو وبربروس سمحا بذلك .
إن السلطان حكم إمبراطوريته حكماً صالحا يتسم بعدم التحيز ، ولكن كان نجاحه أكبر بكثير من شارل المسكين الذى كان يناضل ضد تمزيق ألمانيا بين الأمراء ، وكان سليمان حاكما مطلقا مستبدا ، بحكم العرف الذى لا نزاع فيه وبرضا شعبه ، فهل حظى استبداد هنرى الثامن فى انجلترا أو شارل فى إسبانيا بمثل هذا الحب والثقة من الشعب ؟ وكان شارل لا يكاد يكون قادراً على إصدار حكم الإعدام على ابنه لمجرد الارتياب فى خيانته ، ولكن شارل فى شيخوخته كان يرسل الصيحات مطالبا بدم الهراطقة ، واستطاع هنرى أن يبعث بالزوجات وبالكاثوليك وبالبروتستانت إلى المشنقة أو المحرقة ، دون أن يتخلف وجبة واحدة عن طعامه . أما التسامح الدينى عند سليمان ، ولو كان محدوداً ، فإنه بالمقارنة ، يصم مثل هذا لإعدام بوصمة الهمجية والوحشية .

لقد شن سليمان حروبا كثيرة ، وذبح نصف ذريته ، وأمر بذبح وزير مبدع دون إنذار أو محاكمة ، إنه ارتكب الأخطاء التى تلازم السلطة المطلقة غير المحدودة ، ولكنه كان أعظم وأقدر حكام عصره دون منازع .